عجلتا الدرّاجة

قصة بقلم هاني الراهب

– ١ –

نظر الملازم أسيان (١) ومساعده، والشرطة الثلاثة الذين وقفوا عند ناصية الشارع ، الى المراة التي اعترضت طريقهم واعلنت انها مجرمة وتريد ان تعترف . وراحوا يمترونها طولا وعرضا . الملازم تفحصها طولا ، وابتسم . وقد وجد انها رائعة الاطراف ، وان شعرها المسدل على كتفيها اشبه بالصمغ لونا وقواما . اما المساعد والشرطي فقد تاملاها عرضا . ووجدا ، هما الاخران ، كتفين مستفيضتين ، وحوضا شبيها بحبة فاصولياء عملاقة . اما الشرطيان الاخران فقدقاساها كثافة ووجدا بدورهما ان انبثاقة الصدر لم تكن حيلة الصدارة ، وان للقسم المخروطي ما بين الخصر ومنتهى الاليتين قوام بيضة مسلوقة ، مقشرة وعملاقة ايضا .

واستفاق الرجال الخمسة على صوتها يلعلع قائلا :

– ادخلوني الليمان ، انا مجرمة ، اعملوا معروفا .

فابتسم الملازم وقال :

– لا تزيدين عن سبعة عشر ، وتريدين السجن ؟ حكاية غريبة !

وزقت المراةبوجهة شاكية :

– ماذا اعمل يابيك ؟ ليست بيدي حيلة .

وابتسم الملازم ومساعده وقال :

– هذا صحيح .

– ربنا يخليك يابيك.

اشار الملازم للشرطي السائق ان يركب السيارة الثانية مع المساعد والشرطيين وتقدم ففتح الباب ، وقال بلطف « هيا يابنت » . وكانت تنظر اليه فاغرة العينين مفتوحة الفم . وانتبهت الى انه يخاطبها فقفزت عن ارضها مذعورة وتوسلت:

– اين يا بيك ؟ اين ستاخذونني ؟ لا اريد ان اعود ؟ انا تعبانة .

توقفت عند الجملة الاخيرة راعشة الاطراف ، فتأملها الملازم باستغراب .

قال – تعبانة ؟ ليسباديا عليك !!

فتضرعت : – تعبانة والله العظيم .

هز رأسه بطريقة العارف وتمتم قريبا من اذنها :

– لا تخافي ستذهبين الى مكان آمن ، تعالي.

وصاحت بذل : – صحيح والنبي ؟ ربنا يخليك . انت ابن حلال.

وبدا انه مل من مكوثه قرب الباب ، فتذمر :

– صوتك عال !

– امرك يا بيك .

وكان وجيب قلبها يزداد عنفا .

فتح باب السيارة واشار متعمدا الا يمسها . وحاولت انتصعد لكن وجهها اكتسى بسحابة من التخاذل المضطرب . جفلتكمن احست ببرد في اعماقها . وتذمر الملازم ثانية ولكنبلطف ، فشد يدهاالى الامام وامرها ان تصعد . ووقفت هيتتامل ، ووجهها ينفح نفس تعبيرة السابق ملونا بهدوء رمادي .

– أماقلت انك تريدينالسجن ؟

– نعم يابيك : انا تعبانة .

– تعالي . ستذهبين الى ماهو افضل من السجن .

– لا يا بيك ، انا اريد السجن .

– انه سجن على اية حال .تعالى فقط .

أمسكت بالباب ، وصعدت تنتفض كشعلة باردة ، ثم جلست.

أغلق الملازم الباب واستدار الىالثاني فجلس واغلقه. عندما رد مدرج السرعات الى الخلف ضرب كوعه بظاهر فخذها . وتمتم بسرعة :

– عفوا .

فتجاوزت عن الحادث . نظرت الى الامام كانها لم تحس ولم تسمع وتحركت بهما الشوارع .

بعد قليل سالها : – اتأكلين شيئا ؟

فهزت براسها نفيا .

قال : – انك لم تفطري اليوم !

– لا عليه . لا اريد شيئا .

– ولكن يجب ان تأكلي !

فانكمشت في زاوية المقعد متخاذلة ، كانها ارنب مطارد .

– ماذا يخيفك ؟

– لا شيء يابيك . لست خائفة .

واكد هو : – انت مضطربة ،لا بد انك جائعة .

ثم اوقف السيارة الى ناصية الشارع ، ودون ان يبالي باعتراضها نزل بسرعة كانت السيارة الاخرى قدغابت في نهاية الشارع .

ازدادت الفتاة تقلصا . واشتدت التصاقا بزاوية المقعد ، وشرعت تقضم اظافرها . نظرت الى نهر الناسالمبدد الفروع وارتعدت . كان كل منهم يصيح ويهرعكانما يرد عنه الخياة . واكب حاجباها فوق عينيها وشردت العينان .

انصفق الباب فجاة وجلس الملازم . كانت لا تزال تقضم اظافرها وبعد لحظات شخرت السيارة وتقدمت بالراكبين . مد الملازم يده فقدم لها شطيرتين . لم تمد يدها وازدادت انكماشا .

حضها الملازمقائلا: – انت جائعة ، كلي .

فسرقت اليه نظرة خائفة واطرقت . مد يده ، التقط اصابعها عن فخذها ، فتح الاصابع بالقوة ، وضع الشطيرةفيراحتها واطبقها . لكن يدها بقيت جامدة .

سأل الملازم بحرارة : – مالك يا خيرية ؟ خائفة ؟

وضغط يدهبيدها على فمها . ثم نظر الى وجهها الازرق وذقنها المضطربة ولاحظ شفتيها تتحركان بخفوت وبتر ، وانها بكت .

قال : – ما هذا ياخيرية ، انت جائعةويجب ان تاكلي . !

وكان ما يزال يمسك بيدها ، يضغط بالشطيرة على شفتيها، ويقود السيارة . وصار بكاؤها مسموعا .

– لا يا بيك . انا اريد السجن .

وادارت وجهها نحو النافذة فطفرت من فمها شهقة . وراح صدرها يختلج . وفي حركة سريعة مدت يديها فغطت وجهها . وخرج صوت البكاء .

قطب الملازم وهو ينظر الى الدمع المنثال من بين أصابعها . وغرغر

(١) هذه حكاية من مجموعة قيد التأليف بعنوان « حكايا أسيان بن الضحاك » .

صوتها بين الاجهاش والدمع :

ــ أريد السجن . أنا تعبانة .

واصطكت اسنانها على أظافرها .

هتف الملازم بحرارة وتأثر :

ــ خيرية ! أنت لم تعرفيني ؟ خيرية ! أنا أسيان زميل محرم في الجامعة . أسيان الذي كان يزور بيت سيدك بالعباسية !

فنظرت اليه نظرة سريعة ثم انكفأت . وبعد ثوان هدأ بكاؤهـا، وتطلعت اليه برهة ثم زفرت :

ــ أيوه !! انت ؟ لا مؤاخذة يا بيك . لا مؤاخذة . ولكن لماذا دخلت البوليس ؟ تغير شكلك يا بيك؟

فابتسم وأشعل سيجارة : ــ خير للانسان ان يقبض على المتهمين من أن يقبض عليه متهما.

وفيما راحت تمسح دموعها ، والامن والطمانينة ينتشران على محياها الرطب ، سألت ببراءة :

ــ أكنت تخاف من تهمة ؟

فابتسم وقال : على كل انسان ان يتوقع ذلك.

ــ ٢ ــ

هكذا كانت الحال عندما رأيتها مع المساعد والشرطة الثلاثة . وبعد الجملة الاخيرة صمتنا طيلة الطريق ، فقد انشغلت بالشطيرتين . وأفسح لي الصمت ردة نحو الماضي ، فتذكرت بثوان ما سوف يستغرق الان دقائق لكي أتحدث عنه :

ان خيرية بنت محمد حسين عمر خالد واحدة ممن ولدن في احدى حواري الجيزة بالقاهرة لاب قاطع تذاكر في ترام سعود، يقضي معظم وقته في العمل بغية كسب زائد . في الثالثة عشرة من عمرها دفعها أبوها الى اسرة صلاح الدين باشا لتساعد السيدة في أعمال البيت . وفي الواقع كانت خيرية تقوم بأعمال المطبخ كاملة . على ان احدا لم يعتبرها خادما ،ولم يعاملها على هذا الاساس . وقبل ما يزيد عن عام عرفتها في بيت الباشا صلاح الدين ، كنت آتي بقميص وبنطال فأحضر وابنه محرم لامتحان الاجازة في الحقوق ، قبيل تخرجي من كلية البوليس . وخلال ذينك الشهرين اللذين أمضيتهما هناك كونت عنها تلك الصورة العاطفية التي كانت ابرز ملامحها في ذلك الحين . صورة شفافة عصبية غير مقصودة .

كانت تنتشر في كل غرفة وفي كل مكان ، ناسية في نفس الوقت الوجود الذي حولها . تفيض على الطاولة ، وفي فنجان القهوة ونبرات الصوت . تستغرق في تأمل غيرها كأنها تبتهل امام معبد ، وفي صمتها الذي كان يلطم العين لشدة انعزاله كأنها تقف للمرة الاولى أمام نفسها. تدخل فجأة وتخرج فجأة ، ودون ان تنظر الى أحد ، وكل شيء يمت لها كان يبدو في نفس الوقت جامدا ومتحفزا .

لم تكن تسير بل كانت تركض . اذا نزلت الدرج ركضت . واذا لبت سيدتها ركضت . واذا لاعبت ركضت . كانت تركض حتى على رصيف الشارع . تعدو كأن تفجيرا غيبيا متواصلا يقذفها من الداخل ويفقدها توازنها . وكانت تنورتها الداكنة ترتفع حتى ليكاد يبدو المعور، وينبثق فخذاها المليئان الخاليان من الشعر . ودائما كان صدرها الاهوج يختلج بقوة ويضطرم ويرتج ، فيما يتحرك فخذاها في مسيرة ايقاعية مثيرة ويهتز كفلاها الوثيران . وكان فمها البارز مفتوحا دائما ، وخلفه تتعظم وجنتاها البارزتان وتستدير جمجمتها الصغيرة . على انها لم تتحدث قط لغير سيدتها .

صادفتها مرة في الشارع ، تعدو ذلك العدو الملسوع المطارد، مذعورة النهدين حسيرة الفخذ مخطوفة الخطى . وبعد ثوان كانت قد وصلت الى جانبي . ابتسمت لها ، وبسرعة بسطت يدي امامها. ورأتني وهي تكاد تعبر من تحت يميني فارتدت وانطرحت على الجدار متخاذلة الركبتين مطرقة الرأس . وخمدت حركتها تماما. عند ذاك تحيرت: أأشتهيها أم أعف ، ومكثت هكذا اكثر من دقيقة، أفصص أعضاءها وأشرف عليها من عل ، دون ان تتحرك او ترفع عينيها الي. كانت تلهث متدلية الشفة واللسان مسترسلة اللعاب . وراحت تمتصني بهذا الانخذال المثير ، وتلغي سدود نفسي وواعيتي . اقتربت منها فلم تتحرك ، تقدمت، مددت يدي ، وخطوت ، فانزلتها ، وابتعدت . وظهرت يدي كأنها امتدت بحركة مسير فضفاضة ، تركت خيرية ورائي . وعندما اجتزتها فقط ، تحركت : ركضت نحو البيت ركض ارنب مذعور .

ولم يكن هذا كل شيء . كنت أراها وهي تمسح أرض الحديقة المبلطة . تنورة مشكولة في نطاقها ، وفخذ مرتج . يدان تمتدان بجردل الماء الى الاعلى وتقذفانبه على الارض كأنه لعبة .حتى اذا راحت تمسح البلاط انبسطت عليه . وعندما يتقدم الليل وينحسر جو القاهرة باشعاع النجوم ، كنت أخرج في غبشة الواحدة صباحا من عند محرم فألمح انها في غرفتها ، واذا اصل الى الرصيف أراها من شباكها المظلم وقد نضت ثيابها عنها ، وجثم جذعها الفذ العاري على حفاف الشباك الداخلية ، تحدق الى العالم البعيد وتسترسل في تحديقها . وعبثا كنت أحاول ان اراها تنظر نحو الارض . وفي احيان نادرة كنت أشاهدها بعد انتظار طويل ، ترتد الى الخلف ببطء وتجوس في الغرفة المظلمة ، مستحيلة الى رؤيا داكنة مثيرة ، وتشف كميات لحمها كأنها قطعة من ليل أبيض . ثم تتناول روب سيدتها وترتديه فتشده على جسدها، وتهوي فوق شيء ما .

وكنت أتعب من متابعتها فأسير على طريقي...

انتهت خيرية من قضم الشطيرتين قبيل وصولنا الى المخفر. وهناك صرفت المساعد والشرطيين الثلاثة ، وصعدنا الى غرفتي فطلبت منها ان تفسر لي هذا الالحاح الغريب منها على دخول السجن. قالت :

ــ انا مجرمة يا بيك . عصيت ، والله سوف يعاقبني. ضعوني في السجن .

قلت لها باسما : ــ ولكن معصية الله امر منتشر بين جميع الناس ، فهل تريدين أن نضع الجميع في السجن ؟

فصاحت : ــ لا يا بيك . أنا وحدي . أنا علي ذنب كبير لم يفعله أحد ، ويجب ان يعاقبني الله.

قلت مستفسرا : ــ القانون ، أم الله ؟ قانون الحاكم تقصدين؟

فردت بسرعة : ــ لا فرق ، الحاكم والله ، كلهم واحد . أنا مذنبة كبيرة . والله يعذبني دائما ، ولن أرتاح الا في السجن.

لم أطل الحديث معها . طلبت منها أن تحكي حكايتها ، وجلست أنصت . وبعد بضع محاولات تمكنت من ان اسوقها الى سردها.

قالت ان ما حدث بدأ في السينما . السيدة تصطحب ابنتيها وخيرية الى السينما كلما ذهبت. تجلس السيدات الثلاث في (البريمو) وتجلس خيرية في (الترسو) وهي تحلم بالصور . عندما ينتهي الفيلم تأتي السيدة الى (الترسو) فتنتبه خيرية من استغراقها في تأمل الشاشة وتدلف وراء سيدتها . ثم يركبن الى البيت ، حيث تستأنف حياتها العادية .

وذات يوم حدث تغيير بسيط . ان خيرية تجلس في «البريمو» وراء مقعد سيدتها . وتسألها السيدة :

ــ خيرية ! كيف جئت الى هنا ؟

فتجيب باضطراب وتشوش وخوف : ــ تسللت يا ستي وجئت.

ــ ألم يرك عامل السينما ؟

ــ انه هو الذي أحضرني.

ــ اياك والعودة الى هذا .

ــ أمرك يا ستي.

انها ما كانت لتجرؤ على القدوم بمفردها الى « البريمو » لولا ان العامل دسوقي عبد العال شجعها وأمسكها بيدها حتى وصلت فجلست. واذ تكرر تسللها لم تعد السيدة تعترض . وألفت رؤيتها الى جانبها بعد حين.

وفي مرة ، جلست خيرية وراحت تقزقز اللب من قمع بيدها،

وفسرت ذلك لسيدتها بأنها ابتاعت اللب بالقرشين اللذين تملكهما ، كذلك كان الامر مع الكوكاكولا والشوكولاته والشكليس وعصير المنجة والليمون. ولقد دفع هذا السلوك الابنتين الى الاصرار على بعض الحشمة « انهما لم تكونا تقبلان مثل هذا التصرف نظرا لمكانتهما الاجتماعية » وهاجمتا خيرية برزانة لاذعة مطالبتين بقسط معلوم من الاعتبار .

وهكذا عادت الى « الترسو » . وهناك صارت تتلقى اللب والكوكا وغيرهما من العامل ، فتمضغه مسترسلة النفس ، انها لم تدرك أبدا السبب الذي حدا بسيدتها لارجاعها الى مكانها القديم ، لكنها اعتبرت أن ذلك هو الصواب . في الحين الذي كان العامل يقدم لها ما يقدمه دونما حساب ودون أن يوحي لها بأية رغبة في التعويض . وفي الحق فان العامل دسوقي كان يثير عواطفها بهذا الحنان. انه الذي شجعها للذهاب الى « البريمو » وهو الذي واساها « فأشعرها أن ذلك غريب » عندما أعادتها سيدتها الى « الترسو » ، وهو الذي استمر يقدم لها الملهيات الطعامية فلا يمنن عليها ولا يأخذ الثمن ، حتى شعرت بعد حين بأن ثمة نوعا من الحياة يختلف عنه في بيت الباشا . وكان ذلك مفاجأة كبيرة لها .

وهو الان من اجلسها في المساء ، وكان رواد السينما قلة ، فسألها عن احوالها ومكان عملها ، ولاحق كل التفاصيل عن حياتها واهلها . هز رأسه وسكسك عندما أنبأته بوفاة والدتها منذ عامين ، فاستمطر رحمة الله عليها ، وعلى الاسرة كلها . وهو ، مرة اخرى ، الذي فغر فمه استنكارا لزواج أبيها السريع من امرأة صعيدية صارمة . وتعدى ذلك فراح يواسيها ويضحكها . أخذ يشدها من ذقنها الى أعلى قائلا ابتسمي، ويدير وجهها اليه ، وهي تغضي بخفر ساحر . وتفلت ذقنها فتغضي ؛ ويتجرأ دسوقي فيمسكها بحرارة ، باسما صامتا حائرا .

واستمر حتى كاد يبض الدم من عروقها .

ارتمت يدها على صدره وغمغمت :

ـ يا اختي عليك يا دسوقي.

وبادرها دسوقي وهو يحتاط كتفيها :

ـ أنا أحبك يا خيرية .

ـ صحيح يا دسوقي !

ـ والله العظيم !

ـ وأنا أحبك والله .

وكانت تنظر فرحا ودهشة الى فمه المليءووجهه العريض . وأحست بدثع دوار في كيانها ، بفرط تحسس . أغضت تعض على شفتها السفلى مرهوبة من دخولها عالما فذا مثيرا دخولا ما كانت لتسمح به لو انها فطنت له قبل حدوثه .

وترسب في أذنيها صوت دسوقي الحنون يقول :

ـ مالك يا خيرية ؟

وضمها اليه برجولة . لم تجب بل استكانت . مد يده ورفع رأسها اليه .واقترب بفمه فسقط الرأس على نحرها . وثانية مد يده . مسح على جيدها ووجهها ، ومد شفتيه فملأتا وجنتيها . تحول رأسها الى اليسار وارتفعت يداها تغطيان وجهها. وفي برهة كانت أسنانها تقضم أظافر يدها ، وصدرها يتنفس مضطربا .

أحس دسوقي بطفح في نفسه وفيض غامر . ورغب بقوة في أن يلف يديه حولها فيذيبها في حواسه وينتهي الامر . وهكذا تقدم جسمه منها وامتدت ذراعه اليسرى حول كتفها .

تملصت وقالت عاتبة :

ـ ما هذا يا دسوقي !؟

فأجاب بحرارة : ـ هو الحب يا خيرية !

ـ لكن هذا عيب .

ـ هذا عيب ؟

ـ أيوه .

ـ أبدا . نحن نحب بعضنا وسوف نتزوج !

وأحس لدى الجملة الاخيرة بتخاذل تام في أطرافه ، واعترتها برودة . كان دسوقي قد راح ينظر اليها صامتا عاجزا عن الكلام .

قالت : ـ كيف نتزوج ؟ ماذا نقول للست اذا لم تقبل ؟

فرد على الفور : ـ لا ، لا. بعد أن نتزوج تقولين لها .

ونظرت اليه مذهولة : ـ ليس معقولا !!

فأكد : ـ معقول ونصف . هل تقول لك هي ما يحدث لها معزوجها؟ هذا حب يا خيرية

واستدار وجهها متدلي الشفة موسع العينين على بقعة من السينما لم تكن تراها . وبقيت هكذا برهة .

ـ صحيح.

قالت . كأنها فرغت من تأمل الكلام ...

في الحضور الثاني للسينما ، خرج دسوقي وخيرية فركبا دراجته الى المأذون ، وهناك تزوجا على سنة الله ورسوله ، بحضور شاهدين من اصدقاء دسوقي.

واذ حل الصباح التالي حضر دسوقي الى « البيت الكبير » قبل ان تستيقظ السيدة . ورفضت خيرية ان تذهب قبل ان تطلعها على الامر . وهكذا ، فعندما أفاقت كانت مفاجأة مذهلة تنتظرها . على انها، وهي المؤمنة بأفضلية الزواج على كل شيء ، لم تعارض البتة . نفحت الفتاة ببعض النقود « أعطتها خيرية الى دسوقي فورا » وودعتها بابتسامة كبيرة .

أحست خيرية بالطمأنينة ، فدسوقي لم يكن يعبث بها، التصقت به في العودة والدراجة تقطع بهما الشوارع . قالت :

ـ أنت ابن حلال يا دسوقي.

فتلمظ الجملة برهة ، ثم سألها بلهجة العلم :

ـ تعرفين ماذا تشبه الحياة ؟

ـ ماذا يا دسوقي ؟

ـ الدراجة التي تركبين .

ـ كيف ؟

ـ الدراجة فيها عجلتان : الامامية لابن ادم، والخلفية للمثل العليا.

ـ كيف يعني : المثل العليا ؟

ـ المثل العليا ؟ الشرف يا خيرية ! الاخلاق ، كلام الله ! العجلتان تنطلقان معا . اذا نفثت واحدة تعطلت الدراجة .

وجمجمت خيرية : ـ هذا كلام لذيذ ، والنبي . كله صحيح ؟

فأكد : ـ كله .

أمام والدها انتصبت بعد نصف ساعة، تلتصق بدسوقي وتتهادى .

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش

كانت تقول : هوذا زوجي فقد كلمتك . وخلال لحظات طفحت على عروقهما حدة الانسان . ثم فكرت هـ ي: ان كلشيء منته بعد قليل ، وما عليهـا سوى ان تنتظر . كانت متجمعة ، وأحست أن على هذه اللحظاتأنتنتهي من نفسها ، فهي عاجزة عن انهائها .

وأخيرا طأطأ الوالد متضاحكا ، وصاح فارشا يديه :

ـ مبروك يا حبيبتي ، مبروك . تفضلوا تناولوا الشراب .

فأعلنت خيرية : ـ لا ، نحن ذاهبان. تعال زرنا فيالبيت. بخاطرك.

وقال دسوقي : ـ السلام عليكم يا عمي.

فصاح العم : ـ ليس الا بعد أن تشربا الشراب ! يجب ان نحتفـل بكمـا !

وبرزت في تلك اللحظة إمرأة تسد عرض الباب بجسمها وابتسامتها. دخلت فطوقت خيرية ، وعانقتها بحب عظيم ، وغابت خيرية بين ذراعيها.

قالت المرأة : ـ ألف مبروك يا حبيبتي . تفضلوا .

قال دسوقي : ـ لنتعرف بالعائلة يا خيرية . أريد ان اعـرف اهلك .

وكانت ترتعد . خلال السنتين رآت زوجة ابيها مرتين . لم تستطع الان ان تبتسم ، وكرهتأن ترد على تهنئة الزوجة . واحسـت بثقـل عظيـم .

ـ تعالوا اشربوا الشراب .

فردت بحزم : ـ لا بأس ، فيمرة أخرى .

قال دسوقي : ـ لنتعرف بالعائلة يا خيرية . أريد ان اعرف اهلك.

ونهنه الوالد باسطا يديه ومحركا عضلات وجهه :

ـ يجب ان تدخلوا .

تقدمت الزوجة الى فسحة الدار . وفي الغرفة راحت تذب الصغار من أبناء زوجها وتطردهم الى الشارع :

ـ روحوا ، العبوا .

وقفت على الباب تدعو خيرية ودسوقي الى الدخول ، فيما راح ينسل من تحت ابطيها صغير وصغيرة . واضطر دسوقي للتوقف بسبب كثرة الصغار ووقف الزوجة في منتصف الباب حتى انتهوا من خروجهم. وأعطاه انتظاره ذاك فرصة لان ينتبه الى ان الغرفة المتوسطة الحجم هي المسكن الوحيد للاسرة كلها .

خرجت فتاة في بدء المراهقة وصافحت خيرية بلا كلام . ثمتقدمت من أبيها وانتصبت حذاءه . لم يكن الاب قد تحرك بعد.

صاح دسوقي فجأة : ـ لا مؤاخذة ، يا جماعة . نسيت ان عندي موعدا . أف أ هو موعد في منتهى الاهمية . كيف نسيت الموعد ؟ خمسة جنيهات . بقي ان أستأذن يا عمي . يا سلام ، موعد هام للغاية . يالله يا خيرية ، ياحبيبتي . زورونا يا عمي.

ـ لا يمكن . يجب ان تشربوا الشراب .

صاح الوالدوالزوجة ، ولم يتحركا . على انهما ازاء الموعد الخطير اقتنعا بسرعة أن عليه ان يذهب، وابتسم كل منهما له.

طبعت الزوجة قبلة رنانة على وجنة خيرية . وتناول الوالد ذراعها فقبل جبينها الضيق . كانت يداه ترتعشان . وتلجلج صوته فلم يفصح. لم تفه خيرية بشيء فقد عراها اضطراب . تحولت نحو دسـوقي الذي اعتلى صهوة دراجته . وشد الوالد بيديه راحة دسوقي النحيلة.

وانطلقا الى المسكن الجديد .

غمر الاستقرار خيرية فورا ، واحتوتها الجدران بالطمأنينة والامن. أسرعت ترتب البيت وتنظفه . وفي المساء طبخت لزوجها طبخها الاول ليأكله قبل ان يقودها الى السرير وهو يلفها بين ذراعيه . وعندما امسك بثيابها ينضوها امتدت يدها وأمسكت الثياب ، وبعد لأي قالت « أنـا أرمي الثياب لوحدي » . واضطر دسوقي للخروج من الغرفة . وبعـد ذاك غابت في السرير . عندما عاد كان وجهها ينزوي تحت اللحاف.

ليلتئذ نسيت التعب وسني الخدمة. وتأكدت منأن ثمة حياة مغايرة حقـا .

في اليوم التالي نهضت موفورة الراحة . سارت ، لم تركض، وأسرعت ، لم يذعر ثديها الكبير ، ولم ينكشف ثوبها عن فخذيها . قامت بأعمالالبيت كأنالبيت ينتشر في نفسها وليس العكس . وتركت للاعمال أنتأخذ منها ما كانت تعطيه من قبل بلا انتظار .

أول النهار يتزايد طفح فوق قرارتها . وقد غدت كتيمة فجأة . في أول الليل يمسي الطفح مصدر رعدة خفيفة طافرة . وبعد هزيع ينصب تحت ساعدي زوجها . وتتحول الارض الكتيمة رملا يفور فيه الطفح، ويبخر ماؤه المسفوح على كانون الشبق مرسلا بقايا الوهج المتفحم الى الفضاء . وتستلقي خيرية الى جانب زوجها متخمة الحس مطفأة النفس، فتعب من عالم النوم الموات ذروة تحصيلها في الدنيا .

وكان دسوقي ينزهها كلما استطاع على متن دراجته . يدور بهـا خلفيات القاهرة السحيقة ، وواجهاتها العالية ، الى امـاكن لـم تكـن تعتقد ان العالم يتسع لها ، وأنه اذا اتسع فسيكون كبيرا كبيرا .

وقد حرص دائما على ألا يوقظها عندما يقوم لصلاة الصبح. الا انها كانت تستيقظ مع ذلك وتبقى جالسة في السرير حتى يعود ، فتغفـو ثانية الى جواره ، دون ان تمسه لئلا تنقض وضوءه .

كانت في كل ذلك تنتشي كالحليب الطازج عندما تعتنقهالحـرارة. لم تشعر بغير فرق طفيف بين تعريها في غرفتها القديمة وتعريها فيبيتها الجديد . وكان فرقا في الدرجة لا في النوع . بالنسبة لها كان ذلـك كل شيء ، أقصى شيء . اربع وعشرون ساعة تمضي . بحيرة قرارتهـا نبعها . ينفجر الماء فتغتسل الاعماق ، ويترقرق السطح بمويجاتلعوبات. يزدحم البيت طيلة النهار بها ، بالاطباق والثياب وترتيـب الغـرف ، بالانتظار المرضب لدسوقي الذي كانت عودته مغلاق نافذة وحيدة تطـل على العالم ، بالدعة بالحيلولة بالشبق.

سبعة أيام . وفي اليوم الثامن وقعت المفاجأة . كانت شيئا لـم يخطر لها . بل انها ربما فكرت بتوابل الهند ، لكنها لم تظن ابدا ان امرأة ضخمة طويلة سوف تحيي معها هذا المشهد :

ضحى اليوم الثامن ، فيما غاب دسوقي في السينما كالعادة، فوجئت خيرية بامرأة سمينة في أواخر العقد الثالث تلعلع في صحن الـدار وتزعق ، ثم تهجم الى المطبخ فتضربها ، وتلف شعرها على يدها فترفسها، وتركلها وتخدشها وتوقرها . لم تفهم خيرية ماذا يحدث ، انـما وقعت فريسة الذعر . انشغلت بتجنب الضربات اللعينة . وأخيرا وجدت نفسها في الشارع أمام بيتها الموصد دونها .

هنالك وقفت هي ، مذهولة اكثر منها أي شيء اخر . لم يبـرز احد ولا انفتح باب . وفجأة انتبهت الى صوت المرأة وكان ما يزال يلعلع:

ـ أنا التي هي زوجته . يلقط طفلة من الشارع ، خدامة ، ويجعلها زوجته ؟ فشرت.

نظرت الى الباب وتهالكت . أحست أنها لا تريد ان تكون في تـلك اللحظة . ولم تعد تسمع صوت المرأة أو ترى ما حولها . خيـوط بيضاء ورمادية ارتسمت أمام عينيها ، وركضت مع حركات البؤبؤين ركضـا شيطانيا . ودوت أذناها . وفي اخر الكابوس جثم على اضلاعها خانق ثقيل ، ولم تستطع ان تفهم شيئا .

فتح الباب فجأة وأطلت منه المرأة . وللمرة الاولى لمحت خيريـة شعرا أجعد وحنكين عريضين ورقبة غليظة . بعدئذ ، انقذفت صـرة بوجهها . وارتفع الصوت يدوي في اذنيها :

ـ لتموتين اذا دخلت هذا الباب . قيل امرأته ، قيل.

امتدت بحركة آلية يدها الى الصرة فلمست فيها ثيابها . هـدأت اليد فوق الثياب ، وبدا لخيرية انها تعي نزرا يسيرا .

صرخت المرأة : ـ انتظريه ، وسأطردكما معا .

فنظرت اليها بجمود . وأحست بشوق كئيب لان تدخل البيـت

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

عجلتا الدراجة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٧ ـ

وتتشبث به . استرخت على الارض ، وانتظرت دسوقي ليرى كل شيء. وكان الشوق الكئيب ما يزال يهيمن عليها عندما تقدمت ضرتها مرة اخرى تأمرها بالانصراف .

أخيرا دخلت الضرة البيت وصفقت وراءها الباب ، فلم يسمع صوتها حتى جاء دسوقي . وجلست خيرية معممة باحساسها المر بهروب البيت منها . لم تلتفت بعد الى أي من المارة واسترسلت في تذكراتها.

بعد نصف ساعة تقريبا أقبل دسوقي من امتداد الشارع الاعلى. كان يركب دراجته ويسيل على التراب الصلب . وتطلعت اليه ، فيغمرة البكاء الذي تحرك في عروقها ، كأنها تراه للمرة الاولى.

قال لها : ـ ما هذا ؟ لماذا تجلسين هنا ؟

ونزل عن الدراجة .

ـ جلبت لك منجاية . ولكنها منجاية ! ليس لها أخت في القاهرة كلها . واسند الدراجة الى الجدار فاقترب منها . كان مضطربا.

ـ ما بك ؟

أمسكها من راحة يدها ، وأحس انها ميتة .

ـ أنت ، عندك امرأة ثانية غيري ، يا دسوقي ؟

فاضطرب اضطرابا شديدا وارتعشت شفتاه . كانت هي تنظر اليه بثبات وامعان وكآبة .

ـ لماذا لم تقل ؟ طردتني من البيت .

ـ يستحيل !

ـ ألست أقعد هنا ؟

ـ لماذا لم تطرديها أنت ؟

ـ أقوى مني يا دسوقي .

وأضافت بشيء من الاهتمام : ـ ماذا نعمل يا دسوقي ؟

ـ سوف نطردها !

ـ ولكن أين تذهب ؟

ـ نطردها ونتركها ! أنا لا استطيع أن أعيش معها . انها مجرمة، خنزيرة ، بحجم الجاموسة . انها لا تستحق بيتا ، وانا لا استطيع أن أعيش معها .

ـ طلقها هي ... أو طلقني أنا.

ـ أنت مجنونة . أطلقك ؟ من يقول هذا الكلام ؟ أنت حياتي. أنا أحبك يا خيرية ، ولا يمكن ان اطلقك « وقد تلجلج صوته بالبكاء عند هذا الكلام » خيرية ، حبيبتي ، اسمعيني . أنت تعرفين اني احبك : لكغرفة ولها غرفة . موافقة ؟ لماذا يا خيرية ؟ أنا أحبك أنت ، وسأبقى أحبك دائما . لكنها امرأتي ، ولا يمكن ان تطلقني . هذا قضاء وقدر . ليس عندي سبب للطلاق . يعني اذا جئت للقاضي ماذا أقول له ؟ لا شيء . سيقول القاضي لي : عندك زوجتان ، وهذا ليس جريمة . القرآن يقول أربع . نحن تزوجنا على كلام القرآن . انظري يا خيرية . لماذا ؟ أترين الدراجة ؟ سنركب على الدراجة معا . وسأريك القاهرة كلها ، فيضوء القمر . اليوم نفخت العجلتين خصوصا . نفختهما بنفسي. تعرفين ؟ سنذهب اليوم الى القناطر ، موافقة ؟..

عند كلمته الاخيرة رأى دسوقي زوجته الاولى على العتبة مشبوكة الذراعين طاوية الرجل . وأتم كلامه :

ـ خيرية ، سنذهب الى القناطر . دعيها في البيت . ما لنا ولها. هي في غرفة ونحن في غرفة . سنركب الى القـ .. بلالى حلوان. خيرية . لا يا مبروكة . خيرية .

وكانت مبروكة قد وصلت الى خيرية وانهالت عليها رفسا ولبطا وقذفا حتى طمرتها . والتفتت الى دسوقي. تقدمت منه متحفزة متوفزة. كان ينقل عينيه بسرعة بينها وبين خيرية . ولما رآها تقبل انهى كلامه.

أطلقت خيرية لعينيها الدمع ، وغمرت وجهها بيديها .

وتقدمت مبروكة من دسوقي فأمسكته من نحر قميصه ، وكان يقول الان :

ـ أنت يهودية ، صهيونية ، ساقطة ، لا تعرفين الله . أنا سوف أطلقك ، وشرفي. خيرية خيرية ـ أنت بنت حرام . ولدتك أمك في الاسبوع الرابع للقمر . خيرية تعالي يا خيرية . لا تتركي البيت..

وجرجرته الى الباب ، وبعدئذ أدخلته دون ان تنبس بحرف . وبقيت خيرية تبكي متكومة فوق الارض ، وقد تمددت الى جانبها العجلة الخلفية للدراجة . كان بطن خيرية يختلج ، وكانت عجلة الدراجة تدور في الفضاء . رفعت رأسها ونظرت حولها بعينين دامعتين ذليلتين . ودون ان تعي مدت يدها فلمست العجلة ، ثم سحبت اصابعها وقد تلوثت بالقذر . وخيل اليها ان العجلة سوف تفترسها .

بعد قليل جاءت مبروكة وادخلت الدراجة الى بيتها.

ـ ٣ ـ

الشيء الوحيد الذي نبهها من هواجسها المترامية كان صوتا ثاقبا طن في الجو فجأة وولج كل أذن : الله أكبر ، الله اكبر . كانت الساعة تقارب الواحدة الا الربع ، وهجير القيظ في القاهرة يكاد يوري لهبا. وتابعت المسير .

نظرت الى الناس كأنهم ملاقط داكنة تهتز بخفقة كهرباء . كأنهم عطسة تتبعها عدة سعلات عنيفة . وبعد مرور وقت ، تحولوا الىاستطالات مألوفة قديمة العهد ، غير معروفة مطلقا . وكانت مشاعرها قد ذابت في عجين جسمها التعب ، وسالت تسكب المرارة في مجاري عينيها وحلقها . وكان كل شيء يعدو : سريعا مذعورا يائسا ، وتعافه النفس.

وأخيرا وصلت الى منزل والدها .

كان اخوتها وأخواتها بين نائم في البيت ولاعب في الحارة ، وزوجة أبيها تغسل صحون الغداء . لقيها والدها وهو يهم بالخروج فاستوقفه قدومها .

قال : ـ مالك يا بنت ؟ كفى الله الشر.

قالت : ـ ان دسوقي متزوج من امرأة اخرى .

فهز رأسه ورفع حاجبيه : ـ وماذا ؟ أخذ على خاطرك ؟

قالت : ـ ضربتني وطردتني من البيت .

فهتف نافد الصبر : ـ يا الله يا الله ، بلا مشاعر . ضربتك وضربتها ، هذه أشياء نسوان . سوف تضربك ، طبعا ، الضرائر هكذا ! أم انك كنت تتوقعين أن تبوسك ؟! يا الله يا بنتي ، ارجعي الى زوجك ، ولا تبالي بها .

فنبست خيرية باصفرار : ـ لا يمكن . طردتني وحبسته فيالبيت! لم يأت الي هو مطلقا .

وصاح الوالد نافد الصبر : ـ لقد كتب الله على قلبك الشقاء منذ خلقك . وها أنت تزيدين حياتك بلوى بنزواتك الغريبة . عودي الى زوجك في الحال ، ولا تريني وجهك الا بصحبته . تريدينه ان يأتي اليك ويأخذك ؟ مستحيل ! هذا رجل . المرأة تسعى الى الرجل . ويجب ان تحتفظ به . يا الله يا بنتي ، يا الله . الزواج سترة . ولست أنت أول من كانت الزوجة الثانية .

فتشبثت بقولها : ـ لا يمكن . انها سوف تميتني.

قال الوالد : ـ أنت خائفة فقط ، واهمة .

وأمسكها من ساعدها : تعالي . تعالي نركب الاوتوبيس الى بيته.

فأصرت : ـ لا يمكن يا أبي ، مستحيل.

ـ تعالي ، تعالي فقط . لا تزيدي غضب الله علينا.

وسحبها من يدها من البيت ، فتجرجرت وراءه مكرهة قارفة.

وعند موقف الباص كان ما يزال يقول لها :

- الزواج ستر يا خيرية . الله سبحانه وتعالى اختصك بنعمة كبيرة . وما هي غاية الزواج بعد كل شيء ؟ : زوج يطعمك ويؤويك، أنت تعرفين ان حالتنا صعبة .

صمتت . ركبت الباص الى جانب والدها وأنصتت له . كان ما يزال يتكلم :

- أخوك الصغير مريض . رحت للطبيب والصيدلية فدفعت مئة وثلاثين قرشا . فستان اختك تساقط عنها لشدة البلى . ماذا أفعل ؟ دفع ، دفع ، دفع. ياتي الجنيه ، أوفت ، طار الجنيه . يجب ان تعرفي أن لقمة واحدة تزيد شيء مستحيل . هذه حكمة ربنا. لن تستطيعي شيئا أمام الله .

قالت خيرية فجأة : - سأنزل هنا .

- هنا ؟

- أيوه . البيت قريب . لا ، لا تنزل.

- انتهى يا خيرية . لست مستعدا لاستقبالك مرة اخرى يا حبيبتي، فاهمة ؟ يجب ان تبقي في ظل زوجك ، يجب .

نزلت من الاتوبيس ، وسارت لم تنظر الى ابيها . تقدمت في الشارع . وفي قليل من الزمن نفذت الى شارع اخر وتابعت سيرها. كان سيرا كافيا لان يملأ مفاصلها بالتعب ، على انه اوصلها اخيرا الى بيت سيدتها . وعلى عادته ، كان البيت مغمورا بالصمت والجلال وبأشجار حديقته .

دخلت من البوابة ، بعد ان سلمت على الحاج متولي ، البواب، ثم من الباب الكبير . ثم صعدت فورا الى غرفة سيدتها . ابتسمت السيدة تعتذر لضيوفها عن هذا السلوك . نهضت فانفردت بخيرية عند الباب ، وسألتها ما بها .

قالت : - أريد أن أعود للخدمة عندك يا ستي.

فصمتت السيدة برهة ثم قالت بوداعة وحب :

- تعودين للخدمة ؟ ألم يقل لك أبوك ؟ أحضرت أختك يا خيرية، وفتاة أخرى . اختك بنت حلوة مثلك ، أصغر منك .

أطرقت خيرية .

قالت السيدة مواسية : - لقد كنت تقومين بالعمل قياما مدهشا. تصوري ان اثنتين شابتين تقومان بعملك . أم ... تريدين بعض النقود ؟

فغمغمت : - لا يا ستي . كنت اريد ان اشتغل فقط .

- خذي ... تعالي .

- لا يا ستي، أبدا .

انتابها احساس جارح بالغربة - شدت أسنانها على بعضها. استدارت ودلفت في الرواق . ونزلت الدرج ، فغادرت البيت الكبير.

كان الوقت غروبا والسماء مخضبة بلون النجيع . سارت على الرصيف وئيدة الخطى ، مضيعة السمت . وأخذ طنين الشارع يدوي في رأسها ويفتل كالخذروف . وعند بداية الرصيف الثالث أحست مجددا بعروق ساقيها تتصلب وتتألم.

في المساء تقدمت تحاذي شاطيء النيل . وشردت عيناها فوق المد المسفوح ، تتأملان الاضواء الغامضة وهي تنعكس من بعيد في قلب المياه المظلم . تقدمت من الضفة وجلست مطلقة آهة كثيفة . واذ أخذها بعض الراحة رأت أنها تكاد ان تكون خارج البلد . وفجأة داهمتها رغبة البول . نظرت حولها بخوف . كان الناس يمرون كالاشباح ، وبسرعة هادئة أقعت فأنزلت معورها ، وجعلت تبول .

عندما رفعت المعور برز أمامها شاب يتعطف وتهتز يده.

قال وهو يلثغ ((الظاء)) : - السيارة تنتظر .

فانتصبت ونظرت اليه باستغراب : - سيارة ؟

وجمجم بابتسامة مرتبكة : - السيارة ! ههنا !

ولم تفهم شيئا . انكمشت برد فعل غريزي وأدارت ظهرها.

وقف الشاب برهة ، ثم تحول مضطرب الخطى . قال ولسانه يلثغ ((الذال)) : - عجيب ! لماذا أنت ههنا ؟

وانصرف .

مكثت خيرية برهة مشلولة بالخوف ، ثم سارت . وصلت الى الرصيف وانطلقت نحو قلب القاهرة حالمة بجو من الامان .

« عودي الى زوجك » وأي زوج ! « ياتي الجنيه من هنا - طار الجنيه » واجتازت شارعا . « لم تكن مبروكة تملك جنيهات البتة » على ان المهم الان : أين تذهب . « ارجعي يا ابنتي ، ارجعي . الزواج ستر » . دراجة دسوقي تستلقي على الارض ، وعجلتها الخلفية تدور في الفراغ الخفيض ، دسوقي ذو الاذنين الكبيرتين . على ان المهم الان: ماذا تفعل ؟

بغتة ، ألفت نفسها في الشارع الهابط الى بيت دسوقي. وعندما اقتربت وجف قلبها بعنف . كان البيت غارقا في الظلام ، والشارع يركع في غيبوبة السكون . اقتربت اكثر وتأملت الباب . وبيد تالفة الاعصاب جست مقبضه . ثم نقرت . ثم دقت . ولم تسمع صوتا . قرعت الباب بقوة وخوف ، ثم قرعته . ولم يجبها احد . وانتهى بها الامر الى ان تخبط عليه بكلتا يديها .

ثم استرخت اليدان في اعياء .

ضربت خيرية بعد ذلك في حواري القاهرة وشوارعها وساحاتها، متعرضة بين الحين والحين الى النعر والمرافقة والمماحكة، وحاملة دائما ذلك التصلب المزق في ساقيها . انها لا تذكر ذلك المساء بارتياح: مسير بلا نهاية ، وبشر يطلبونها . واصعب من هذا كله انها كانت تحت وطأة الحاجة الى التغوط . وزادها ذلك حصارا . واخيرا تهالكت فوق صرتها مفرغة الخاطر عاجزة عن المسير طاوية البطن ، وممتنعة عن ان تقرع باب الشقة الذي قصدته . وبعد هنيهة تواثبت في رجليها نيازك التعب كأنها تفح اللحم وترميه مزقا ، أحست برغبة في ان تعض ساقها او تضغط عليها بنصل سكين .

عندما طن في اعماق سمعها صوت مبهم أحست كأن مطرقة تتدلى فوقها لتضربها . واشتدت الجلبة فأجفلتها . وبين ضباب الاستيقاظ الراغم سمعت صوتا يقول بهدوء وخفوت:

- لم تكن القاهرة بخيلة يوما . والله في الاعالي يرزق القائم والنائم والمتكيء على جانبه .

استيقظت تماما ونظرت اليه . زحفت على وركها لعلها تنجو من هول انتصابته . وبعد ثوان دخلت معه البيت وهي تستند على كتفه. أوكاها في البهو ثم اشعل الضوء . قادها الى المرحاض فاغتسلت وتبرزت واغتسلت ثانية . وبعدئذ قادها الى غرفة يسارية فأجلسها على كنبة. رمى كتبه على الطاولة وخرج . عاد يحمل طنجرة يتصاعد منها بخار خفيف ووضعها عند قدميها . نزع الكندرة وأسك قدميها ، فرفعتهما باستحياء منهك ، ووضعتهما في الطنجرة . وأحست بدفء الماء

فاسترخت والقت رأسها على الجدار .

جلس الشاب على الارض وغسل يديه بالماء . امسك ساق خيرية وراح يدلكها . واستغرق في ذلك زمنا : يرفع اصابعه الى ما خلف الركبة فيشدد العروق ، ثم ينزل الى بطة الساق . فيفركها بين راحتيه، ثم يضرب عليها بظاهر راحته ، ويضغط على العضلات بابهامه وسبابته. أخيرا انتهى من الساقين ، فنهض وغادر الغرفة .

عاد يحمل طعاما مؤلفا من نواشف وبيض مقلي. وضع الطعام على الكومدينة واشار لها ان تأكل . لكنها سكنت في مكانها . وعاين الشاب احجامها فخرج وأغلق الباب.

وهكذا امتدت يدها الى البيض فأكلته، ثم الى العسل فنالت منه حتى امتلأ بطنها ، ثم جلست مستفيضة النفس.

دخل الشاب ببطء . وصوب اليها نظرة مهيبة . نظرت اليه، والتقت أعينهما . كان في عينيه انتظار واثق مطمئن ، وكان فيهما سؤال. على انها لم تجرؤ ان تتكلم ، وراح قلبها يلعج بالرهبة والوجيب . رد ملحفة السرير واشار لها ان تضطجع .

نهضت وفعلت ذلك بلا ابطاء . ورفعت بؤبؤيها اليه . امتدت يده فأمسك يدها المرتعشة في تحركها . وكانت ما تزال ترمقه بنفس النظرة الراضخة . تناول يدها جيدا ، وراح يفعل لها ما فعل للساقين . واهتز لحمها الثر بين اصابعه الطويلة ، نفرت الدماء في عروقها حارة مثارة متعبة . وتصعدت لعينيه الغامضتين نظرة من عينيها منقوعة بالاسترخاء. لقد اعطته زندها ، شأنها شأن من يخطو الى الامام خطوة يعلم انها بدء هبوط في الوادي العمودي.

عندما أمسك يدها البعيدة أحست بشدة أصابعه . وتهاوت نفسها مفرغة بالنعاس . جثم هو على السرير لكي يتناول ساعدها . واحست ببرودة يده تحت ابطها . ولجت الى ملاعب الزئبق مرسلة الخاطر في تهويمة نوم ضبابية .

— ٤ —

أفاقت خيرية ضحى اليوم التالي فنظرت الى سقف الغرفة. وعجبت من هذا الفضاء الشاسع يتمدى امامها . حاولت ان تتذكر اين هي ومن هي. ثم حاولت ان تتذكر كيف توجد الان . وأعياها تذكر الجهات الاربع . ذعرت . قعدت في السرير على عجل واضطراب، فوجدت نفسها عارية الا من الرداء الخارجي الذي لم يكن لها ، تأملته بلا وعي : كان شبيها برداء سيدتها . رفعت عينين مدورتين الى فراغ الغرفة الابكم ، وشفتين منفوختين . ولم تفهم شيئا.

لم يكن في الغرفة احد ، ولا في الشقة . وامام حوض المطبخ وقفت تنظر الى الباذنجان والبندورة والبصل ، كلهم مرمي على الارض ببالغ الفوضى . تثاءبت ، تمطت ، دخلت المرحاض . في المرحاض فكرت بكل ما حدث لها بالامس . وعاد اليها الخوف.

احتواها انفساح الشقة من جديد ، واحست بالامن. تقدمت فغسلت وجهها ودلفت الى الغرفة . وفجأة عاد خوفها.

لبست ثيابها على عجل وحملت صرتها . تقدمت من الباب وفتحته. كان أول ما رأت رجلا عبر الشارع واختفى . واندفعت يدها فأغلقت الباب . ووقفت مطرقة . في خاطرها اغتلى سؤال منعها من الحركة ما الذي سيقوله الناس عندما يرونها ؟

مكثت وراء الباب ممسكة بالقفل ، وكأنما اراحها الوقوف من العودة غير المرغوبة الى الغرفة ومن الخروج غير الممكن منها ، فراحت تتأمل الجدار خالية الذهن . ولم تجرؤ على الحركة .

أخيرا تعبت ، استدارت وجاست في الصالون . دخلت المطبخ. ودفعتها عطالتها الى ان تمسك باذنجانة . جثت ، أمسكت بالسكين، وشقت بطن الباذنجانة . واسترخت على الارض قاصرة الذهن .

بعد ساعة ونيف انهت طبخ الطعام ، ولم تتمالك نفسها فتناولت وجبة كاملة . وبعدئذ غسلت وهرعت الى الباب تتأبط صرتها ، وهي واجفة الخطى . فتحت الباب ، واغلقته . وهكذا صارت في الخارج دفعة واحدة . نزلت على الدرج مضطربة ، وسرها ان لا يراها احد .

عند مدخل العمارة انتصب امامها الشاب .

ـ خفت ألا أجدك .

وبغتت فتخاذلت واسترخت على الجدار خافقة الحنايا متصلبة الاطراف ، وسقط رأسها على نحرها ممتد الفم الى أمام.

ـ سأعرض عليك أمرا . أرى انك واحدة ممن حكمت عليهن القاهرة بزوال عقدة الاثم . نحن هنا ثلاثة سوريين ، طلاب جامعة ، من طرطوس: أنا لطف الله ثم سعد الدين وأديب ، رفيقاي يعودان اليوم من نزهة بالاسكندرية . اذا أردت المجيء الينا نكون مسرورين جميعا وسنرحب بك .

وصمت ينتظر الجواب . على أنها لم تجرؤ حتى على ان تفهم ما قال . كانت موكوءة على الجدار ، متخثرة وملفاة . وبعد قليل بدت عليه الحيرة . تأملها في التحامها الساكن بالجدار وعلائم ضحك مستغرب تجيش في وجهه . ورفرفت هي جفنيها ولم تحر جوابا . صمتت ، وصمت . واستمرت متقعرة فوق الارض .

قال : ـ ما اسمك ؟

فلم تجب . تقدم يرقى الدرج يائسا من تحريكها . وانكمشت لدى مروره بخوف واستسلام ، جعلاه يلتفت . وسألها ثانية :

ـ ألا تريدين أن تقولي ما اسمك ؟

ثم : ـ ما اسمك ؟

ـ خيرية .

قالتها بخفوت ، وكانت ما تزال على تخاذلها .

ـ ألا تريدين ان تسكني معنا ؟

فلم تجب .

ـ عندما تقبلين تعالي. سنرحب بك حقا .

وصعد الدرج ، عند الباب تأملها برهة ، ثم دخل دون ان يغلقه .

زحفت خيرية الى المدخل وخرجت ، واستقبلها قيظ الظهيرة الحاد يلسع جلدها المرتعش . كل ما حولها كان غريبا . تذكرت الاشخاص الثلاثة الذين كانوا يستقرون في مكان بعيد هادىء من واعيتها . وأتعبها أن كلا منهم قد غدا نائيا كأنه في عالم اخر.

عبرت شارعا واستأنفت المسير ، وسرت في مفاصلها رعدة . ثم عبرت شارعا ثالثا ، وكان ذلك شاقا لكثرة ما حاذرت الاصطدام . على أنها ظلت تعبر الشوارع واحدا يتلو الاخر ، وتندس بين كتل البشر والحديد المتسارعة .

وصلت الى البوابة الكبيرة . سلمت على عم متولي ودخلت . استدارت الى اليمين فالتفت حول البيت الكبير . وسارت الى شجرة معينة فجلست . هناك غمرها الظل الكثيف وأرعشها ببرده . استندت الى جذع الشجرة وعبثت بالربيع الذي حولها.

كان البيت مستسلما لنوم القيلولة . وراحت خيرية تتأمل الغرف واحدة واحدة ، وتكبح حنينها الى شباك شمالي صغير . انتظرت ان تلقى أختها والفتاة الاخرى فتتبادل معهما الاحاديث . وقد صممت مسبقا أنها لن تمكث في الحديقة فور أن تراها سيدتها . انها سوف تذهب لحظة تراها .

وتحقق لها ما املته . بعد قليل أقبلت فتاتان ، كبراهما في نحو الثانية عشرة ، والصغرى في نحو العاشرة . تقدمتا من الجانب الخلفي للعمارة مستغرقتين في حديث ضاحك لاه. وراحت الكبيرة تنط وتفرش يديها . عندما رأتا خيرية توقفتا بنظرة فاحصة . وفجأة ركضت الكبرى وارتمت بين الذراعين اللتين امتدتا للقائها .

عندما وصلت الصغيرة ، قالت لها زميلتها :

ـ هذه أختي خيرية ، يا حبيبتي يا أختي.

وعانقتها من جديد .

في غرفة خيرية القديمة ، راحت النساء الثلاث تتبادلن الحديث بطلاقة وانشراح . لم يطل الوقت بخيرية ، فخلا ذهنها من كل شيء. وراحت تتصارع معهما ، وتنط . وجعلن تتدافرن . ثم دب الحماس في خيرية فاقترحت لعبة الاستغماء . وقبل الاقتراح فورا ، فغممت عينا أخت خيرية ، ثم الصغرى ، ثم خيرية . وعلت أصواتهن بالضحك والصخب . ورحن يتفنن في انتقاء الزوايا الصعبة الالتقاط ، حتى اذا أمسكت الفتاة المغماة بزميلتها المبصرة حاولت انتطبق عليها بكل قوة ، فيما تنشد الاخرى متباعدة ، والاثنتان تنفجران بالصخب والكركرة .

أحست خيرية بنشوة حارة . واندفعت تلعب باذلة للحركة ضعف ما تستهلكه من جهد . قفزت في الجو . انطرحت على الارض . صاحت بكل حنجرتها . حبست انفاسها حتى الاختناق. خبطت بيديها وساقيها. انسلت كالشبح .. حتى انطرحت أخيرا على سريرها القديم فائرة مسترخية .

وأخيرا حل المساء .

قالت أختها : ــ ستذهبين الان ؟

فغمغمت باضطراب حيي : ــ أوه .. ما أصعب ذلك.

ووقفت أختها تتأملها حتى خرجت .

خرجت من مخبئها السحري ليلفح جبينها الرطب نسيم المدينة العدم . ومع انها لم تكن تدري أين تمشي فقد ثابرت على اجتياز المسافات، وكان جو المدينة الضخم يعيدها الى صوابها الكريه . تذكرت أباها فارتعدت وفجأة وجدت نفسها امام منزله. وغاص قلبها.

سلمت على زوجة ابيها بارتخاء . وقالت مجيبة :

ــ انه في السينما . كنت أمر من هنا ...

ولم تتم جملتها .

قالت الزوجة : ــ انت بنت حلال . كان أبوك يكاد يزورك هذا اليوم . ولكنه لم يستطع بسبب الشغل . قلت لنفسي : خيرية تزوجت رجلا ميسورا ، ولعلها تستطيع مساعدة ابيها واخوتها بكم قرش.

رددت خيرية : ــ تريدين نقودا ؟

فنهنهت الزوجة : ــ قلت ، يعني .. يمكن ان خيرية حازت قليلا تعطيه لابيها . أنت تعرفين كم هي صعبة أحوالنا . تشربين قهوة؟

دخلت الزوجة الى المطبخ بحفاوة بالغة. وهربت خيرية بأقصى سرعتها . لم تكن تدري أين تسير، ولكنها ثابرت على اجتياز المسافات. وأخيرا تركت ساقيها ترتميان أنى شاءتا.

على انها بعد قليل شعرت ان شبحا يطاردها منذ زمن . وسربلها الخوف . رجفت اعضاؤها وتجمد اتجاه رأسها . واخيرا ادركت انه « هو » وأنه لن يكف عن ملاحقتها . واسرعت . جعلت تطوي الارصفة بارتجاف ساقيها وخوف عينيها .ومرة اخرى لم تكن تعرف الى أين المسير . ومرة اخرى بوغتت : وجدت نفسها امام بيت دسوقي. ولكن لم يكن ثمة احد .

لم تجرؤ على الوقوف . كان « هو » ما يزال وراءها ، وسوف يأخذها الى النظارة . وهكذا غذت المسير . وعادت تقطع الشوارع من جديد .

على باب الشقة ضربت بسرعة ، وكان الخوف يأكلها . مرت ثوان قلقة ، ثم فتح الباب . وانتصب أمامها شاب لعوب العينين طحيني اللون. رآها ، فمد اصبعه على امتداد يده وصرخ بحيوية :

ــ انك خيرية .

وظل مادا اصبعه بحذاء أنفها حتى همت بالدخول . وعندئذ خرج اليها فأمسك زنديها يدفعها بهما الى الداخل . واستمر حتى اجلسها على كرسي وضع الى المنضدة . رمى على ركبتيها فوطة ، وكوم أمامها اربعة ارغفة . وجلس .

قال لطف : أهلا خيرية . هذا أديب . جاء اليوم .

وكان يجلس هو الاخر الى الطاولة.

في نفس اللحظة برز شاب ثالث ، رآته خيرية يكشر ثم أدركت أنه يبتسم . وقال اديب باقتضاب وسيادة ، وهو يمد يده مطرقا :

ــ سعد الدين : أحضر كرسيا لك.

فأتى الاخر بالكرسي ولم يعر أديبا أي انتباه . نظر الى الباب ، ثم سار اليه فأغلقه ، وعاد فجلس .

وبدأ الاربعة يأكلون . قال سعد الدين :

ــ من ذا الذي يقف على باب العمارة ؟

فتوقفت اللقمة في حلق خيرية .

سأل لطف : ــ شرطي ؟ أراهن أنه ذهب.

ونهض فاستطلع ، وعاد يؤكد كلامه .

قال : ــ كلي طبخا . الخبز يجعلك سمينة .

فلبت ذلك ببساطة.

وخطب أديب : ــ أقسم لك ، ثلاثة ايمان بالله ، أنك اذا تركت البيت فسوف أتضور ثم أموت. نحن الثلاثة هنا على استعداد لان نحبك: أنا ، بعنف وتهور ، لطف بعمق ، وسعد الدين بطريقة ميتافيزيكيةمعرورقة معلنفطة .

كشر سعد الدين فابتسم ، واستعذبت ذلك خيرية . قال :

ــ انتظر حتى تصل البنت ، لتطمئن نفسيا الى أننا بالرغم من كلمات لطف الفضائحية لسنا وحوشا .

نظر اليه لطف ، قال : ــ لماذا ؟ نحن نريدها كل منا . صح ؟ لقد قلت لها ذلك منذ البداية لئلا تعتقد أننا ملائكة .

زعق أديب : ــ انكما تعقدان الامور . لا ملائكة ولا شياطين ، بشر. أنا وخيرية بشريان محترمان ، بشريان متحرران . وغدا سنذهب على الدراجة الى القناطر.

وتابعت خيرية أكلها .

قال سعد : ــ أما آن لهذه الدراجة أن ترتاح ؟

فتشنج أديب : ــ أوصلتنا الى الاسكندرية ! أفيتعبها ان توصلنا الى القناطر ؟

وتابعا حديثهما عن الدراجة .

قال لطف : ــ هل تريدين أن تأتي يوميا ، أم تسكني معنا ، أمماذا ؟

فتوقفت عن الاكل تماما . قالت :

ــ أنا متزوجة .

ورد لطف حاسما : ــ وماذا في ذلك . المهم هل قررت أم لا . يجب أن تقرري أنت .

فرددت باضطراب وخفر : ــ ولكنني متزوجة .

فتح لطف عينيه الكبيرتين وقال :

ــ كل النساء اللواتي يأتين الى هنا متزوجات ، ولهن أولاد أيضا.

وانتبه الاخران .

صمتت خيرية . قال سعد:

ــ خيرية متزوجة .

قال أديب بلامبالاة : لا يهم . المهم ان تروي غليلنا وتبقي.

ولم تتكلم ، قال سعد :

ــ ستكون اقامتها معنا تجربة مثيرة .

فرد أديب مكشرا : ــ لماذا ؟ أراهنك أنه لا توجد في القاهرة امرأة تختلف عنها الا في الدرجة .

قال سعد : دعنا من هذا ، ولنمتع حواسنا بميتافيزيقا جسمها.

قال أديب : سيكون ذلك رائعا ..

ونبر لطف : ــ المهم الان ــ اسمع يا اديب ــ ستبقين عندنا !

في مساء اليوم الثالث كانت الشقة تكتسي بطابع جديد من الاستقرار والحيوية والنظافة . وعندما أردفها أديب وراءه على الدراجة شعرت انها دمية مترفة . والتصقت به عندما اجتاز « شبرا » وتقدم نحو حدائق القناطر الرائعة . هناك وضع الدراجة عند بقال قريب واشترى بعض الفواكه ، ثم جعلها تتأبط ذراعه وتسير الى جانبه . وتذكرت سيدتها وسيدها .

قشر أديب موزة ووضعها في فمها . ثم قشر تفاحة وقسمهـــا ، فتناولت خيرية ثلثا منها بالرزانة التي اقترحها اديب وبالبساطة . واذ همت بقضمها رأت بحس فطري ان اللقمة يجب ان تكون صغيرة.

ولم تترك ذراعه البتة ...

اصطحبها لطف في اليوم التالي الى مخازن القاهرة العالمية ليشتري لها كندرة بكعب عال . واعتقد ان معارضتها لهذا الاصطحاب قد زالـت نهائيا . ذلك انها ذابت في ذلك الخضم الحاشد من عنفوان الحياة . امتصتها العيون وهي تجوس في ((محلات زينة)) . ضاعت ، لولا لطـف الذي كان يمد ساعده باستمرار . ولقد أخذت تهرع اليه كلما رأت انها ابتعدت عنه . تعمد ان يتركها وحدها لبعض اللحظات ، واذ ذاك أحسـت بثقل العيون . على انها ادركت بطريقة ما ان هذه العيون لن تستطيـع ايذاءها . وازداد اتزان خطواتها وتناغم اهتزازها .

وأخيرا خرجا . لم تجرؤ مطلقا على ترك ذراعه ، خشية ان يوقعها ذاك الرأس الحاد الذي الصقته بكعبها ، على الارض .

وكانت موفورة الارتياح والهناء.

عندما اجتمعوا في المساء الثالث أعلن سعد الدين ــ وقد جلسوا في الشرفة ، وخيرية ترتب الطعام بينهم ــ :

ــ انها في سبيلها الى الذوبان .

فصرح لطف وهو ينظر الى الشارع :

ــ انها تختلف في النوع ايضا .

قال أديب : ــ ما الذي في سبيله الى الذوبان ؟

فأوجز سعد : ــ عقدة الاثم . ماذا : تختلف في النوع ؟

أجاب لطف متأملا الشارع في هدوء : ــ عن النساء اللواتي عرفناهن.

فقرر سعد وهو ينظر اليه : ــ انها تفتقر الى التكيف .

قال أديب متحمسا عابثا : ــ الا انها لا تفتقر الى الحس الرباني.

فتحول عنه سعد نهائيا ، وانقطع الى لطف ، الذي قال :

ــ انها تفتقر الى جرثومة الانحلال المباركة .

وأرخ سعد : ــ انها ما تزال تقيم انسانيتها على أساس الاعتبـارات الكلاسيكية المتعفية للاخلاق . ومن هنا يصعب التفاهم معها.

فخنخن أديب : ــ انها مثل الحمل يا رجل ، حرام عليك.

ــ انها اذن يصعب عليها التفاهم مع نفسها .

وكثرت ((الانهات)) على مسمعي خيرية فلم تعد تحفظ الكــلام. كانت مسرورة وحسب ، فالثلاثة يتحدثون عنها .

نظر اليها لطف أخيرا فرآها تستند الى باب الغرفة.

قال : ــ اذا حضر الطعام صمت فرويد .

وشرعوا يأكلون ويمازحون خيرية .

بعد العشاء قال أديب متمطيا :

ــ واذا انتهى الطعام رفع فرويد عقيرته.

وظلوا يتحدثون ، حتى أعيا خيرية الكلام فنهضت الى غرفتها.

بعد وقت متأخر من الليل دلف كل من لطف وسعد الدين الــى غرفته .

في اليوم الرابع راح أديب يحوص في البهو مفتلي الذهن . اقترب من خيرية في المطبخ وحاول ان يتكلم . توقف ، ثم اتجه الى الصنبـــور فغسل يديه ووجهه . ولم ترفع خيرية رأسها بل استغرقت في بشـــر البطـــاطا .

دخل لطف فشرب . والتفت اليها .

قال : ــ ان السيدة الماهرة لا تضطر الى غسيل الصحون مرة ثانية. لقد رأيتك .

فانخذلت ، وسقطت السكين من يدها .

قالت ، وهي تتناول السكين :

ــ صببت عليها ماء فقط.

ولم تستطع ان تبتسم .

خرج أديب . وقال لطف :

ــ ماذا حدث ؟

لكنها لم ترفع رأسها .

دخل سعد على غير توقع ، وهتف بسخرية جاذلة :

ــ أما آن للمرأة أن تتخلص من بشر البطاطا والاستعاذة بالله مـن الشيطان ؟ انهضي ايتها الحورية الفاتنة . الحياة تصلي لكنوزك الثـرة الرائعة ، فالبسي أجود الاراء وتطيبي بروائح القرن العشرين وهلمـي معنا الى السينما .

خرج لطف متحيرا ، وقصد الشرفة وجلس . بعد قليل أشعـل سيجارة . أقبل سعد، على غير توقع أيضا .

قال : ــ ما الذي يمنع الانسان من الموت اذا كان يعيش بشـلث الكرامة التي ينبغي ان يعيش بها الانسان ؟

صمت الاثنان .

قال لطف :ــ هل تقصد خيرية ؟

فخطب سعد : ــ أقصد كل هؤلاء التعساء المتمسكين بالمثل العليا.

صمت لطف فلم يجب بشيء . كان فضاء القاهرة مفرغرا بالضـوء الاغبر ، وحركة المدينة في بدء انتشائها بالليل انتشاء غامضا مرهبا.

ومر الليل . ومانت بطاقات السينما في جيب سعد ، فقد فشـل الثلاثة في حمل خيرية على الذهاب .

وكان أديب حزينا تماما . نام في سريره الى جانب سرير سعد. وفي الصباح ولى الى الجامعة . على انه لم يستطع البقاء هناك. وعند الظهر آب الى الشقة . وغاص في الكنبة عندما وجد الغرف خالية، وجعل يقـــرأ .

لم يطل به الوقت اذ أتى سعد الدين يحمل تحية كثيفة .

سأله أديب : ــ أين حبيبتنا ، أيها المربي الكبير ؟

فأجاب : ــ أين قضيتنا ، قل . لست أدري ، أليست هنا ؟

ــ أهو لطف من خرج معها ؟

سأل سعد وهو يجلس ، بديمقراطية عجيبة :

ــ وما هي علاقتك بهما ؟ ألم تأخذها أنت الى القناطر ؟

ــ لا بد انه أخذها الى ((جروبي)) .

ــ انها هي التي تذهب مع واحد منا . عليها ان تقرر بنفسهـــا. يجب ان تنحل عقدة الاثم . مخلفات القرون . الجدار الاسود الذي يشل فعالياتنا ، قل لي أنت : هل تستطيع ان تتخذ قرارا ؟ انك تتكرر.

ــ دعها بلا فلسفة ، محبة بالله . أية حريـة ، وأنـت تتسلط على وجدانها بتوجيهاتك .

ونهض يسير في الغرفة .

قال سعد : ــ انك لا تفهم . يجب ان تذوب عقدتها .

فتح الباب فجأة ودخل لطف . أغلق الباب ، وتقدم يجتاز البهـو الى غرفته . لكنه توقف ونظر الى النصبين الماثلين أمامه.

قال ــ ما هذه الحملقة الغريبة ؟

وهرع أديب الى الباب ففتحه وأطل منه . ثم أدخل رأسه ملتفتـا الى لطف .

فـــي البحـــرين

تطلب ((الاداب)) وكتب ((دار الاداب))

مـــن

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبــي

قال : ـ اين هي؟
فتشبث كل بوقفته ، وراحوا يتبادلون النظر.
قال سعد : ـ هل خرجت تتنزه ؟
فاعترض لطف : ـ ما الذي ينزهها في هذا الوقت !؟
وجلس أديب على الكنبة مسترخيا كلية ، وهتف :
ـ انها تركتنا وذهبت .
دخل لطف الى المطبخ .
قال سعد بصفراوية : ـ كيف فعلت هذا !
وكان أديب قد ثنى اصبعه في فمه واطرق.
عاد لطف يمسح يديه بالمنشفة . قال :
ـ ما يزال الطعام ساخنا ، قوموا الى الغداء .
فنظر اليه الاثنان ببطء ...

في ليل اليوم التالي جلس لطف في الشرفة يدخن . كانت غوامة سيجارته تشع طويلا في الظلام ، ثم تنشر دخانا كثيفا . وتمر برهة فيعلو الاشعاع وينتشر الدخان من جديد . ويمر الناس من تحت الشرفة على امتداد الشارع العريض . كانت همهمة منهم تصل الى اذنيه مدغومة بهمهمات مدينة القاهرة . وعلى دائرة الافق انسكبت الاضواء المتلالئة في ضباب العتمة كأنها تزيح الستار عن ضجيج شفاف .

نهض بطيئا ودلف الى البيت . وعجب من وهم صور له ان احدا يضرب على باب الشقة . وبنوع من الرغبة ضعيف ولكنه لا يقاوم، فتح الباب وسار الى مدخل البناية .

كانت خيرية نائمة اعياء . أيقظها بصفعتين ، وانهضها . وبطريقة ما حملها على كتفيه مجرجرة القدمين ملوية الرأس . وادخلها غرفته فأوكأها على السرير .

أحضر لها ماء ساخنا ، دلك يديها وساقيها ، احضر طعاما ، وسدها على السرير ، وهم بتركها . لكن يدها امسكت بياقته فلم تتركها . نظر في عينيها ، ونظرت في عينيه . وابتسم في سره ابتسامة وادعة وهم بسحب يدها . كانت ما تزال تنظر اليه تلك النظرة الصلبة الجامدة. ولم تمنحه الفرصة ليفعل ذلك . ارغمته على ان يطأطيء ويقبلها ، وعلى انيضمها ، وعلى ان يجلس الى جانب خصرها . وطوقته كحبيبة ارادت ان تدلل رجلها ، تدلله باعتذار وعطاء وفي واستسلام ، فضمته اليها، مدت حول كتفيه ساعديها فارتفعت بين ذراعيه . وكأنما عجزت القبلة، فانغمر وجهه بشعرها . واستمرا لحظات كأنهما تجمدا الى الابد.

غمغمت : ـ سأبقى دائما ، اذا رضيتم .
وقال : ـ يا خيرية ، يا خيرية . انك من عالمنا ، وكلنا نحبك.
كان الاحتفاء بها في اليوم التالي تظاهرة عصبية . قال سعد ان «عقدة الاثم» انتفضت في نفسها للمرة الاخيرة ثم طارت. وأيقن اديب انه ما من سبب يمنعها بعد الان من اظهار الود له . وجعل الاثنان يتنابزان بألقاب سورية عنيفة ويشنان حربا على الحياة .
وقال لطف : ـ ان خيرية بنت جحيمنا.
وكان صمته الفطري أشد توترا برجوعها من ثورة رفيقيه .
وهكذا اصطحبوها الى السينما يوما ، والى الكازينو يوما اخر. وركبوا معها قاربا نيليا أزرق في يوم ثالث . وخلال الايام الثلاثة لم تنفرد بنفسها لحظة ، حتى في اوقات الطبخ.
قال سعد : ـ ان تصرفاتك ملكك الشخصي.
وصاح اديب بصوت مخلخل :
ـ اننا نحبك جميعا.
وكان لطف يفتح نوافذ غرفته لهواء الغروب . قال :
ـ اسمع انت زوجها الذي لايترك صلاة . لعله لا يعلم ان كل الدراجات والعجلات التي في العالم عاطبة .
ودخل البهو فاجتمع ورفيقيه حول خيرية ، وحاصروها بدبكة سورية حارة . وبعد قليل ذهب الاربعة الى السينما . وكان كل شيء رائعا .

* * *

بعد ان خرج الثلاثة في اليوم التالي ، ومكثت خيرية بعض الزمن ترقب الابنية الملاصقة وتمتص السكون الغامض الذي احتضنها ، جلست على الكنبة . واخذت شمس الضحى ترسل في قرارتها شعورا بانهماك القاهرة في صخب عالمها الرحيب. تأملت الجدران طويلا والنوافذ. ثم نهضت الى غرفتها . لم تدر ماذا تفعل هناك فعادت . كان البهو مقفلا ، وسكونه رصاصي الايحاء .

فجأة ، سمعت صياحصبية يتدافرون على سلم البناية المقابلة. تقدمت من النافذة وراقبتهم . كانوا يضحكون ويشتمون ، ثم يضحكون من جديد ويتدافرون على السلم .

واخيرا اختفوا ، ولم يعد يسمع سوى اصواتهم . وفي ثوان تلاشت الاصوات . عادت خيرية الى غرفتها ، تناولت صرتها ، وخرجت من الشقة . لم تنظر وراءها ، ولم تلتفت الى احد . سارت بسرية وهدوء وبطء . وكانت شاردة العينين. اجتازت « باب الحديد » ثم «الفجالة» وغاصت في مدينة القاهرة .

وصلت الى منزل دسوقي اخيرا ، ولطمت الباب بيدها . استرخت ترقب الشارع الخاوي كأنها زفير رخو . ضربت ثانية ، ولم تلتفت نحو الباب ، ثم جلست على العتبة . وضعت راحتيها تحت ذقنها واسترسلت تتأمل الشارع مقفلة الحاجبين .

ارتعدت عندما فتح الباب ، ونهضت بذعر عظيم . وراءها لمحت رجلا شيخا شديد السمرة . واذ التفتت مأخوذة نحوه، سألها:
ـ يا ابنتي ، ماذا تريدين ؟ هنا لا يوجد شباب .
قالت له ببراءة : ـ هل تعرف ... انت تسكن .. لا مؤاخذة.
قال : ـ مع السلامة . ليكن الله في عونك .
ومكث يتأملها . كان لعابها قد زرب على شفتها . وجمدت بلا حراك ...

عندما أدركها الليل أخذت تبكي. وكان بكاؤها قسرا . تدحرجت الدموع على خديها عنوة ، لم تشهق لها ولم تفتح فما . وتساقطت قدمها على الرصيف ، لم تجرؤ على الوقوف . وبعدئذ انفردت بالليل والشارع في مكان ناء من المدينة ، وقد ادركها التعب والجوع ولم تستطع انتفهم الكثير عندما توقفت سيارة صغيرة الى جانبها ، فأحست ان عليها ان تدخل . كان خيطا الدموع النحيلان يهويان على خديها وتمددت الى جانب شاب يضع خرقة نظيفة سوداء في فتحة ياقته.

في بيته ، تناولت عشاء وقسطامن الراحة . ونظر اليها مبتسما. رمى سترته بعفوية ، وخرقته وقميصه ببساطة .
قال : ـ أنت تعبانة ؟
تقدمت ، وأغلقت الباب وراءها . وهنالك بكت حتى تصلب صدرها .
خرجت بعد ذاك ، وتقدمت بسرعة عمياء الى الغرفة ...

ـ ٥ ـ

قال سعد :
ـ غدا ، يوم أعود الى طرطوس وأستقر نهائيا ، سوف اذكر الى الابد هذه الخيرية . عالم ، وفطرية جامحة ، ووجدان مترجرج ... وما لست أدري ... انك لا تعرف السبب ، ولكنك تجد ان النفس شيء وكل ما حولها شيء اخر .
قال لطف :
ـ جاءتني اليوم رسالة من أبي يطلب مني فيها ان احصل على جواز سفر وأذهب فأقابله في البرازيل . انه ليس معقولا ان احصل على جواز سفر واذهب الى هناك ، ولكن تصور فقط ، كم ان هذه الانتصابة التي هي جسمنا تحاول ان تمد جناحا حول العالم : البرازيل والقاهرة ومنشوريا .. وأب يمضي عمره في الطرف الثاني من العالم، يحلم بابنه ولا يراه .
قال سعد الدين :

ــ يجب أن ندرس التقاء الاقاصي في هذا العالم . ههنا ظاهــرة هي قبل كل شيء وجودية : ان اعماق النفس التي تكبلت بقوالب الماضي تمزق خيوط العنكبوت الثقيلة ، غير مرتبطة حتى الان بسوى عفويــة طبائعها العارية . في طرطوس سيتوفر لدي الوقت ربما لكتابة مسرحية أو بحث عن هذا التخلع.

انبثق صوت اديب بنرفزة ــ وكان يتكيء الى باب الشرفة ــ :

ــ انكم مقرفون في الواقع ، وباردون ، غليظو القلوب . كل منكــم يحاول ان يشعر برجولته فيحلل مآسي الاخرين ضمن معادلات نفسيــة ميتة .

بعد صمت قصير سأل لطف بمحبة وسخرية :

ــ أما زلت تعتقد أنها ستعود ؟

وأجاب أديب : ــ ما أزال أعتقد أنكم بليدون .

سأل سعد : هل تذهب معه الى البرازيل ؟

وكشر .

رد أديب : اذهب معه انت ، في البرازيل مخاض مماثل .

وتركهما .

قال لطف : ــ منذ عشر سنوات لم أره.

قال سعد : ــ وماذا تنوي أن تفعل ؟

قال لطف : ــ لست اجرؤ على التفكير . ان امثالنا لا يملكون فــي هذا المجتمع سوى الهوية المدنية ، ونحن عاجزون عن كل مسؤولية كأننا أبناء غير شرعيين لهذا العصر.

وبغتة أزت صيحة صاخبة من اديب ، وتبعها زعيــق هستيري . وراح يعوي وينبض في البهو ويرفع رأسه عاليا فينزله ، ويده تنتصــب عمودية في الجو .

تقدم لطف الله وسعد الدين فوجدا خيرية بالباب . كان وجههــا وعيناها وفمها ووقوفها صامتين زائغين . لم تتكلم . واستمرت عيناهــا تنصلبان على زاوية منحرفة من ارض البهو. تنحى أديب جانبا ، ودخلت هي مطرقة الرأس ملجومة الخطى الى غرفتها ، واغلقت على نفسهـــا الباب . وبقي الثلاثة اشبه بالتماثيل بعض الزمن ، ثم قرروا اقتحـــام الغرفة . وهناك وجدوها تبكي مكبة الوجه على الوسادة .

انسحبوا بهدوء ، كل تاركا فوق رأسي رفيقيه ضبابا كثيفا مــن الصمت . واسترسلوا في عباب النفس حتى ادركهم النعاس ...

وتلك كانت المرة الاخيرة التي ابصروا خيرية بها . فــي الصباح التالي غادرت الشقة ، ولم تكن تعرف الى اين . وهكذا استمر سعــد الدين يحلم بمسرحيته ، ولطف بعلاقاته العائلية . وبقي اديب يذكــر خيرية بحزن وثورة احيانا ، وبحنين خاسر احيانا اخرى.

أما هي فقد انطلقت الى الشارع ، حتى اذا أقبل الليل يفتـــح امام عينيها نفس المعبر الاسود ، ابتاعت تذكرة من كشك دار للسينمــا وجدته امام وجهها . ودخلت فجلست . كان الناس يتوافدون صامتين تقريبا ، هادئين تقريبا . ومعظمهم كأن يصطحب معه فردا اخر. وســرى الجو الدبق في اعصابها ، بستائره الحريرية وشاشتــــه المستطيـــلة، وامتداده الانسيابي المهيب . واسترخت في مقعدها جيدا .

انتهى العرض فظلت على مقعدها . وراقبت الاجساد الكسولة فـي انتصابها وتحركها البطيء ، في الوقت الذي بدأ يتلاشى ضغط الفيــلم عن اعصابها . تأملت الشكل تلو الاخر حتى فرغت الصالة . واستقرت عيناها على مدار الدار العريض العالي ، في تأمل طويل للستائر الوردية. ومضى زمن .

اقترب منها عامل السينما وقال برقة :

ــ سوف نكنس يا هانم. لو سمحت يا هانم والله.

فنظرت الى كتفيه العاليين بضراعة. ندت من فمها آهة حين وجدت نفسها اخيرا وجها لوجه امام المشكلة التي ابعدتها عمدا . ونفحــت انفها رائحة كتل لحمها الثري اذ تتجيف كل ليل تحت تعرق الجــلود الثخينة ، لتستلقي في النهاية بركانا أسود الجدار خامدا .

سألها العامل بيأس : ــ أأنت واحدة منهن ؟

فقالت مذعورة : ــ ممن يا بيك ؟

ــ بنات الليل .

فهتفت بعمق : ــ لا ، والله العظيم . ولكن لا بيت لي.

وقال العامل متفلسفا : ــ هذه مشكلة فعلا . ألم يكن لك بيت أبدا؟

فطفر الدمع من عينيها وأومأت أن نعم . اقترب العامل منها وقال:

ــ ان الله لن يتخلى عنك يا أخت .

فغمغمت : ــ لقد تخلى يا بيك ، تخلى من زمان.

اقترب أكثر وطلب اليها ان تقص عليه حكايتها . وظلت تبكي مطرقة مجهشة ، ثم همهمت :

ــ لست ادري يا سيدي . ماذا أقول لك ؟

عندما رفعت رأسها لمحت الدموع في عينيه . واطمأن قلبها .

نظر العامل حوله : كان رفقاؤه يكنسون الصالة . ونهض عــن مقعده .

قال : ــ تعالي اسكني مع أختي. هناك لن يمسك احد . انا واختي نقيم في دار فيه غرفتان وفسحة ومطبخ. نامي معها في غرفتها، وانا في غرفتي. هناك لن يمسك احد ، وستعيشين شريفة.

وبعد برهة اضاف : ــ الله يتخلى عمن يتخلون عنه ، فلا تتركيه.

لم تجب بشيء . اكتفت بالحملقة الى وجهه .

خاطبها ثانية : أما كنت تقولين أن الله تخلى عنك ؟ ماذا تريـــدين أكثر من مكان يؤويك فلا تضطرين الى ارتكاب الحرام ؟

وساد صمت حرج.

قال : ــ ظننت أني سأهديك ، سأعلمك الصلاة لتري كم هو جميل أن يعيش الانسان تقيا . واستدار ليذهب .

تمتمت : ــ وهل يغفر لي الله ؟

فالتفت مبتسما :

ــ طبعا . يغفر الله لكل ذي توبة مخلصة .

وعلى الطريق قصت له حكايتها ، وهو يصغــي بانتباه عميق. وسألته اخيرا :

ــ هل سأكون طيبة ؟

ــ حتما . توكلي فقط على الله .

فقالت لنفسها ان كل ما لاقته من ذل وما غرقت فيه من اثم نتيجة لعدم استعانتها بالله والتوبة اليه. وهجم الله فجاس في غضون نفسهـا، وعلقها في الفضاء ، ثم شع في الكون نورا ودعوة . وتندت زوايا عينيها.

التفتت الى رفيقها تقول : ــ متى اكون طيبة ؟

فأجاب بثقة : عندما ترضين الله باستمرار .

كانت أخته نائمة . أيقظها ودفع اليها بخيرية .

قالت : ــ من هذه يا عبد الجبار ؟

فأجاب بانشراح : ــ هذه أخت لك .

كانت خيرية تحملق بشرود وجبن . وفي ثوان لانت جوانب نفسها ببعض الاستقرار . ولم تلبث الطمأنينة ان سربلت أضلاعها عندما فرشت لها « اختها » فراشا ، فنامت غنية عن كثير من حركات نومها السابقات.

أيقظتها آمنة ــ وهذا كان اسم اختها ــ لصلاة الصبح . وبعــد الوضوء والصلاة جعلها عبدالجبار تكرر هذا الدعاء :

« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات طبائعنا ، ومما أتت ايدينا من الاثم . من يهـــده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له . وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له، واشهد ان محمدا عبده ورسوله » .

وقال لها انه يطهر النفس . ثم كرره لها في المساء مرات ، وقال :

ــ ان الابتهال يا خيرية يغسل النفس مثل الصابون.

فشعرت بفرح عميق ، وقالت :

ــ ما معنى من يهده الله فلا « مضلل له » والذي بعدها ؟

قال : ــ من يهده الله فلا « مضل » له . ومن يضلل الله فــلا

هادي له . أي اذا أراد الله ان يعذب نفسا ، فلا احد بمستطيع انقاذها. وكذلك اذا انقذ الله نفسا فليس من يمكنه تضليلها .

ارتعشت خيرية قليلا .

وتابع عبد الجبار : — أما اذا خالفت الله وضللت فلن نخلص حياتك من العذاب والمذلة.

فهتفت مبهورة :

— ولكن اذا تبت فسوف يهديني الله !

قال عبد الجبار بارتياح : — هذا طبيعي.

وأعقب : — لقد عذبك من قبل لانك ضللت طريقه . أما الان فهو قد رحمك ، ونهض الى عمله في السينما .

لبثت خيرية في مكانها برهة . ثم تقدمت ، فابتسمت آمنة لها بحنان كبير . ودخلتا غرفتهما . جلست آمنة تعمل ببعض الملابس، فيما وقفت هي وراء كنبة واستندت عليها .

بعد دقائق أحست بالحر . وهرعت الى النافذة . لكنها توقفت بنفس السرعة عند مقبض المزلاج ، كمن تذكر شيئا أهم من عمله الحالي. عادت الى الديوان ببطء . وجلست ترقب باهتمام آمنة التي قعدت على السجادة ترفأ ثياب أخيها ، وقد تملصت بضع شعرات من نصيفها فسقطت على وجهها .

ابتسمت ، ووثبت فأمسكت بالثياب .

قالت : — أريد ان اعمل شيئا . أعطني الثياب لاشتغل.

وفوجئت بأن آمنة امتنعت بعناد هادىء رزين عن تسليمها الثياب. ولما لم تجد سببا لذلك أمعنت في طلبها . وعجبت في النهاية من اصرار آمنة . جلست الى جانبها ، كتفاها عاليان ويداها عميقتان في حجرها. صمتت ، تنهدت ، وراحت تراقبها .

أحست بالحر ثانية ، وهرشت بعض جسمها . نهضت الى المرآة الصغيرة المثبتة في الجدار . رفعت فستانها عن جسمها ورمته على المشجب الصغير . واهتز ثدياها داخل الصدارة ، فاضطربا خارج قميصتها الزهرية وعادا الى الداخل . تقدمت من المرآة فمشطت شعرها بمشط كسير ، ثم ربطته . وعادت فجلست الى جانب آمنة . كانت آمنة تتنفس ببطء ورتابة وبصوت مسموع ، وقد استنقعت عيناها في الثوب الذي تمسكه .

نهضت خيرية فلبست فستانها .

قالت آمنة : — أنت تطبخين جيدا .

فأجابتها : — تعلمت ذلك في بيت الباشا .

وأحست بالحرج لانها لا تتحدث لآمنة . وما لبثت ان استغرقها تذكرها للبيت الكبير ، فقامت تتجول على غير هدى في الغرفة. وامضت هنيهات كثيفة وهي تستعيد حياتها هناك وصورتها العارية في ظلام الغرفة وتجولها . واخذتها رعشة ثقيلة . هرعت الى جانب آمنة، التي كانت قد سألتها :

— لماذا رميت ثم لبست فستانك ؟

فلم تدر بماذا تجيب . وتسلل احساسها تلك اللحظة الى فمها ، فقالت :

— الدنيا برد ..

ثم استدركت : — قصدي .. حر .. الدنيا حر .. لكن .. أنا خائفة ، برد !

وفوجئت بالدمع ينبعث من عينيها عنوة وصاحت بيأس مفاجىء :

— ماذا أفعل ؟.

ارتفع رأس آمنة بسرعة ، وبسرعة مدت يديها وألقت بينهما بالرأس الباكي . وأجهشت خيرية ...

قال عبد الجبار بعد ان اصغى مليا في الصباح التالي :

— هل تعذبت كثيرا بسبب ماضيك ؟

فزقت بصوت دامع : — انه حكاية صعبة يا سيدي .

وفرش يديه امام وجهها قائلا :

— انما يجب ان تطمئني وتفرحي ، فروحها لم يغتصبها الشيطان. ابعديه عن نفسك وروحك . لقد احسنت بعدم فتح النافذة ، فالبيت محوط بالناس . ولكن حاذري ان ترفأي ثيابي فهي تذكرك . البسي تحت فستانك ثوبا طويلا فقد اوصانا الله بستر العورة . ولا تتركي رأسك حاسرا .

وبدا لها حينئذ شبيها بانتشار خفي يملأ ساحة الدار وتتزن على شفافيته مجاميع العالم ، كأنه قنديل يضيء في بركة ماء . اسرعت الى آمنة في الغرفة الاخرى ، وجلست على الديوان بغبطة لجماء. راقبتها وهي تدخل الخيط في سم الابرة . وانتبهت الى ثوبها فراقها. نهضت الى الدولاب ولبست واحدا .

نظرت الى آمنة فرأت أصابعها ترمح فوق القماش الابيض الطويل، ورأسها ينكفيء فوق نحرها وقد افلتت منه شعيرات اكثر من قبل.

سألتها بغتة :

— آمنة لم لم تتزوجي ؟

ورأت عينيها ترتفعان نحوها ، شبه خامدتين لولا لمعة قصية في محيط البؤبؤ .

هتفت آمنة : — الزواج قسمة ونصيب .

فتذكرت خيرية زواجها ، الذي تم بنفس المعنى .

سألت : —ماذا يعني ؟

ورأت على شفتي آمنة بسمة حانية عاقلة .

هتفت امنة من جديد : — عندما يظهر ابن الحلال .

وتذكرت خيرية دسوقي . صمتت برهة تفكر ، ثم سألت:

وكيف يكون ؟

— لست أدري . مثل عبد الجبار .

فصاحت : — انهم كثيرون !

وعقبت آمنة بهدوء : — بالعكس . مثل عبد الجبار لا يوجد في القاهرة كلها .

في المكتبات

مع الإمام عليّ

من خلال «نهج البلاغة»

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي يتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تأليف

خليل الهنداوي

منشورات دار الاداب

الثمن ٢٥٠ ق.ل

أمام هذا الجواب سقط خيالها في الظلام . وشيئا فشيئا زاولهـا خمول وأسى ، واستلقى أمامها الزمن كسيارة شحن فارغة تسير بـدعة وبـطء .

ونامت تلك الامسية شديدة الحرص على ذكر الله .

قبيل الضحى فتحت الباب لطارق غريب . تلقت منه سلتي خضار وحاجيات .

ـ قولي للشيخ عبد الجبار ان السمان ..

وهمت باغلاق الباب فاستوقفها التفات السمان المأخوذ اليها.

ـ مالك ؟

ـ أنت زوجة الشيخ ؟

فردت باستحياء : ـ لا انا اخته .

ـ اخته ؟ مثة فل ! قولي له ان الحاجات هذه بلا ثمن ، لا بـل قولي له انها بنصف ثمن . كلا ، كلا ، قولي انها بثمن كامل ولكننـي انتقيتها خصيصا ، الشيخ عبد الجبار هذا بلاء . السلام عليكم.

ـ مع السلامة !!

وادخلت السلتين الى البهو . تلثمت جيدا واشعرت عبد الجبـار بوجودها . وفي برهة أطل من الباب.

قالت بخفوت : ـ هذه الحاجات من السمان . قال انها بلا ثمن ، او بنصف ثمن او بثمن ! لم افهم .

قطب عبد الجبار وقال : ـ ماذا ؟

فغمغمت : لست ادري . كان يريد ان يقدمها بلا ثمن ، ثم خاف منك.

وأصر هو : ـ ماذا قال؟

فردت بضجر : ـ لست ادري . قال شيئا وقال عكسه .

واعقب كلامها صمت قصير . دخل عبد الجبار الغرفة . خرج . أشار لها ان تاتي وسار بهدوء الى غرفة آمنة .

تبعته وهي في بدء احساسها بغموض مهيب ، وجلست على الديوان. وسرعان ما تحول احساسها بالمهابة الى ارتباك ، عندما سمعت عبـد الجبار يحدثها عن موضوع مختلف تماما وغير متوقع.

قال : ـ خيرية ، اريد ان اكلمك كلمتين . اتعرفيـن الحليـب؟ الحليب الدسم الطري من ضرع الجاموسة ؟ انك مثل الحليب . ان فيك كل ما تشتهي النفس وهذا هو سبب شقائك . هذا هو السبب في ان حياتك أضطربت وغرقت في الخطايا والاثم والشر ، ولبسها الشيطـان. حدثك زوجك عن المثل العليا وعجلتي الدراجة ، ولكن كان هو نفسـه مطية الشيطان حين استغل جهلك فزوجك وهو لا يستطيع حمايتك. ثم غرقت في الاثم والرذيلة الى اذنيك . انك خاطئة الى درجة قصـوى. وقد زاد مشكلتك حدة ان كل الناس الذين حولك خطاة ايضا وضالون. الشيطان يقفز الى كل نفس . وانت ضعيفة ولا تستطيعين مقاومة الاغراء ـ كل الناس ضعفاء . يجب ان تتجنبي التعرض له ، عيشي بعيـدة، كوني محبوسة دونه ، اغلقي عينيك وقلبك واذنيك عنه.

وتأملها قليلا واردف : ـ عندما رآك السمان قفز الى نفسه الوسواس الخناس . انني اعرف تماما ماذا جال في خاطره . فهو مثل كل الناس في هذه المدينة لا يردعه وازع من دين ولا خوف من خالق . ان العالم الذي يحف بك مليء بالضمائر الملوثة . فاذا اردت توبة حقيقية ابتعدي عن غوايات النفس .

طيلة هذا الوقت كانت خيرية تحملق الى وجهه صامتة رتيبـة الانفاس .

قال لها : ـ ما رأيك ؟

فانتفضت اذ وجدت ان عليها ان تصدر حكما.

قالت : ـ لا ادري ! انا تبت ، تركت الشيطان .

وانحدر رأسها نحو آمنة ، وشهقت فبكت .

نهض عبد الجبار تاركا الغرفة . قال :

ـ لا تنسي : انك تقهرين الشيطان ولكنك لا تميتينه .

وهتفت آمنة بصوتها الخفيض :

وكانت خيرية تبكي الان : صوتها ينحب وجذعها يهتز . وتهـاوى جسمها عن الديوان كشاة ذبحت امام وثن ، فيما ملأ مفرشي الديـوان خديها وبكت مفلتة الاعصاب .

بعد حين استدارت بين ذراعي آمنة . نهضتا، وتوضأتا ، فمثلتـا بين يدي الخالق .

وسلت الصلاة من بلور نفسها خيطا قصديريا أزرق فشف وشعشع وتحذف . استرخت على البساط مغمورة بكآبة قريرة . وسرح العـالم امام عينيها محجبا بزجاج كثيف .

في الايام التي تلت ، احبت خيرية ساحة الدار كثيرا . وقفت عند الشجيرات الصغيرات ما طال الوقت بها ، حتى اذا انتبهت اندفعت نحو الغرفة في سرعة ملحوظة . واذا تؤدي عملها ـ لم تكن تستغرق فيـه طويلا ـ تعود الى النافذة المطلة على الساحة فتكنو هناك زمنـا يتجاوز الساعتين او الثلاث ، وهي مقلوبة الشفة متنقلة العين على نفـس المرئيات ، وتناديها آمنة فتقفز اليها ، وبعد لحظات تقف امامها. عندئـذ تكون قد انتقلت من سكون النوم الى تهيج اليقظة.

الذي تغير كان شيئين عاديين . أصبح عبد الجبار يفضل ان تحضر آمنة طعامه ، واصبحت هي تنام كثيرا . استغرقها النوم كما تستغـرق الالة حركة محركها ، فمنذ صلاة العشاء حتى صلاة الصبح لا تستيقظ ساعة واحدة . وعند الضحى تنام ساعتين او ثلاثا. وكذلك بعد الغداء. اما العصر فتقضيه وراء النافذة ، كأن ساحة الدار استحالت الى عالم مسكـون .

قالت لها امنة مرة :

ـ الست تلاحظين شيئا وانت تسيرين ؟

فاجابت بمحبة :

ـ الاحظ أني اريد ان اقوم عنك بكل الاعمال .

وضحكت .

ابتسمت آمنة ، وألحت :

ـ ألا تلاحظين شيئا ثانيا ؟

فتطلعت حولها متسائلة، وقالت بخوف باسم :

ـ ماذا ؟

ـ انك لا تسيرين بل تركضين .

فصاحت : ـ صحيح ؟! كنت هكذا في بيت سيدتي.

نظرت اليها آمنة مطولا ، فتلاشت حيويتها ببطء ووقفت تبادلهـا النظر بخوف عابث .

قالت آمنة : ـ انك اذ تركضين تظهر عورتك. وهذا حـرام كمـا تعلمين .

فسألت باضطراب : ـ ما هي العورة ؟

ـ هي كل شيء بعد الكاحلين هذين ، وبعد المعصمين هذين ، وهذه الدائرة من الوجه ، يجب الا تظهر.

حملقت اليها مستطيلة الوجه واسعة العينين.

قالت آمنة : ـ انك تركضين . صدرك يهتز . ثوبك يرتفع للاعلى. كل ... وطرفاك السفليان يظهران . اذا لم يرك احـد ، فأنت تزين أعضاءك ، تتهيج نفسك ، يوسوس الشيطان ويخنس لـك . اذا نظـرت الى اعضائك اشتهت نفسك ، وهي أمارة بالسوء .

نظرت خيرية ببلاهة وألم ، وامتقع وجهها .

ـ ماذا يوسوس لي ؟

فاعلنت آمنة باختصار : ـ شيئا مما حدث من قبل . انك تقهرين الشيطان ولكنك لا تميتينه .

تذكرت حياتها الماضية بسرعة. واستقر ذهنها عند البيت الكبيـر. تذكرت تعريها في الليالي ، ورداء سيدتها ، والاندفاع الحار الذي اتسمت به حياتها . جفلت . أعلنت بخوف انها تتمسك بحياتها الجديدة، وشعرت بحاجة قصوى للراحة .

سحبت آمنة من عنقها سلسلة خبيثة فقبلت المستطيل الذهبي الذي

حملته ومدته لخيرية :

ــ القرآن .

وقبلته خيرية بحرص عظيم .

ثم اصبحت لاتغادر الدار ، لا الى بابه ولا الى ساحته . وتوزع يومها بين المطبخ وغرفتها ، عملا ونوما . فاذا سارت سارت بطيئة ، واذا تحدثت فبصوت خفيض . لم تعد تقابل عبد الجبار الا في اوقات الصلاة والاستماع للتلاوات . كان يأتي الى الصالون فلا يلتفت ، ويجلس فيقرأ القرآن ، واذ ينتهي يغادر الى غرفته بهدوء جميل. وتنتقل خيرية وراء آمنة الى الغرفة الاخرى مرضية الخاطر ساكنة النفس ، فتبسم لها اذا التقت أعينهما ، وتجهد في ان تسبقها الى ترتيب الغرفة . ويمر الصباح فتعلو الشمس مرة اخرى فوق سطح البيت الكتيم ، ثم تنتصب ، فتميل، وتنام قبل خيرية بقليل .

بعيد حديثها الاخير مع آمنه اصبحت تعشق النوم. انفتحت امامها رؤى، كان عبد الجبار يبثها في خيالها منذ دخلت الدار . وصار النوم وسيلة تخفف شوقها المشبوب لتلك الرؤى . انها ستصبح طيبة في النهاية ثم تحتل مركزها في الجنة . وحاولت ان تتصور ذلك المكان السحري فما عثرت على غير الرؤى . « هناك مكان لا يمكن تصوره ، ولكن قولي انه كل الروعة والسعة والسرور » ، قال لها عبد الجبار.

قالت لامنة مرة :

ــ أتعرفين ؟ الجنة ! الله ، سبحانه وتعالى ، ينزل حبلا مثل حبل الغسيل من السماء والارض ، ويأتي عزرائيل فيخلص الروح ويجعلها تمسك الحبل . الحبل هذا يعلو ، يعلو الى مكان عال ، عال ، وهناك تدخلين الجنة .

ابتسمت امنة دون ان ترفع عينيها .

قالت خيرية بتأمل عميق :

ــ تعرفين ؟ النوم أحسن شيء في الدنيا . يوما ما ستنامين النوم الذي يريحك الى الابد.

وجعلت تؤمئم بهدوء وغبطة ، وتتأمل جدران الغرفة الخضر، وخشب النوافذ الاخضر ، حتى شعشع النوم في اهدابها .

في اليوم التالي قالت لامنة :

ــ أنا كنت مجرمة ، مجرمة كبيرة . ولو لم يغفر لي الله لكنت، لكنت .. في حالة سوداء . لكن انا الان ــ أنا تبت ، انتهى.

وصمتت برهة ثم قالت :

ــ سوف يطلقني دسوقي قريبا . سوف ينتهي كل شيء .

أمام هذه الفكرة شردت في الصباح التالي عينا عبد الجبار قليلا ثم اشتد فمه وقست ملامح وجهه النحيلة . قال :

ــ قال لنا الله ان هناك شيطانا، بوسعه ان يغوي النفس . انعليك أن تصلي لله فتتقطع صلات الشيطان بنفسك . ودار الزمن . في هذه المدينة الملعونة ، من يصلي ؟ من يتقي « النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ؟ لقد ذهبت ريح الصلاة وبقي الشيطان يهب على النفس فيقذع وجدانها وضميرها . هذا الدسوقي ...

وبصورة طبيعية توجه الى خيرية بالحديث :

ــ هؤلاء المجرمون ! ليذكروا قول الله « ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين » بماذا يطمعون وقد أعد الله « جنة عرضها السماوات والارض » فيها الكوثر وكل ما تشتهي النفس . كيف تنزلق أقدامهم في وحل الشر ، كيف يمرغون وجوههم بقذر الخطيئة ؟ كيف يدنسون أوقات الصلاة بالشهوة والكفر ؟ كيف يستيقظون واجسادهم تعبق بالاثم ؟..

انطرحت خيرية على الارض . وهذا هو الذي أوقف عبد الجبار عن كلامه . نظر اليها مشدوها ، والتوى رأسه . وكانت قد بدأت تبكي بكاء أقرب الى العواء ، فاستوقفه صوتها الغريب . راح يحدق اليها متكورة عند قدميه ، كأنه لا يعرفها. ولم ينتبه الا حين تقدمت آمنة بهدوء عظيم وأمسكتها من ذراعيها . نظر الى المرأتين ، أولاهما تنبح موتورة ، والثانية تبكي بصمت وتتمتم ببعض الادعية . بعد دقائق استطاع حلق خيرية ان يخرج الصوت التالي :

ــ آه ــ اه ــ اه ــ اه ــ اه ..

انسحب عبد الجبار ، وبقيت آمنة تسند رفيقتها . طيلة ربع ساعة غمر المسكن هدوء شبيه بالموت ، لم يقطعه سوى الشهيق الذي رافق تنفس خيرية ، بعدئذ انفتح باب الغرفة ، وتقدمت خيرية الى الغرفة المقابلة.

استقبلها عبد الجبار بصمت .

قالت : ــ أريد ان اطلق يا سيدتي.

واحتزت صدرها شهقة شديدة .

قال برأفة : ــ اراك تتعجلين الطلاق.

فانبثقت بكليتها في جملة مباغتة :

ــ أريد ان يطلقني وتتزوجني أنت.

وأحست بأنها تريد ان تنطلق بأقصى سرعتها الى الفضاء ، وان يحاول بعد ان يراها .

وقالت بسرعة عظمى : ــ أنا خائفة .

انكمشت جلدة رأسه ، وبهت . تابعها وهي تنصرف باضطراب بين ، قال :

ــ خيرية ، تعالي .

فاقبلت اليه ، وأخذه الاضطراب .

تمتم : ــ قلت ان اتزوجك ؟

فتجمع توقها في جيشان باطني حار :

ــ أيوه . أنا أحبك ــ والله .

وكان خداه مصقولين ممسوحين . قال :

ــ و ، و ، ولكني .. كيف خطر لك ؟ هل كنت تفكرين في هذا من قبل ؟

واذ انتهى من جملته غمرت وجهه دهشة كان ينبغي ــ لولا انفعال الضيق ــ ان تظهر منذ البداية . وعاد اليه الضيق ثانية ، فزفر.

قال : ــ صلي ، يا خيرية . صلي بقلب مؤمن .

كانت هي مطرقة معقودة الاصابع.

قال : ــ صلي ، ولا تجعلي مطالب النفس سببا لايمانك.

وراءه تلك اللحظة تعلقها به . قذفت موجة جامحة من الخوف نفسه ، وأحس ان خيرية تريد ان تكونه بالذات.

قال : ــ لو تزوجتك ، ما الذي يكون لهذا الايمان الذي انقذك من فائدة .

سألته وهي على مشارف البكاء :

ــ ألم أصر طيبة بعد ؟

وقبل ان يجيبها أدرك حرج الجواب ، وأحس بالضيق .

ــ هذا شيء يقرره الله .

فصمتت برهة ، ورددت بيأس :

ــ اذا لم ترض أنت ، فكيف يرضى الله ؟

ومكثت الى جواره ريثما جمعت قواها لتسير . ابتعدت . لم تع شيئا من كلماته ، فقد ضاق صدرها برغبة لم تستطع تنفيذها ، هي ان ينتهي كل ما حولها . وصلت الى الحمام فأسندت رأسها الى القازان، وحاولت ان تدرك هذه الاقاصي المترامية التي تفصل عبد الجبار عنها وسائر الناس . وفشلت فلم تصل لغير الحزن. أحست آنئذ بالتعب وتراخت أعضاؤها ، ودلفت الى الغرفة فنامت منكبة الوجه زمنا طويلا.

ــ ٦ ــ

بعد أيام قليلة تزوجت خيرية رجلا ثانيا . في ضحى يوم جمعه ذهبت مع السمان ، الى مأذون زوجهما بحضور شاهدين من أصدقائه، على سنة الله ورسوله .

لم تقل لامنة لماذا اتخذت هذا القرار الذي أعادها الى وحشة

الحياة المفلتة ، حيث تتعطل جدوى الصلاة وخشية الله . ولم تقل لي أيضا . أعرضت عن ذلك عمدا . وتلك كانت الناحية الوحيدة التي لم استقصها مطلقا . كان التفكير فيها أجرح لمشاعرها من أن تتحمله.

سارت الى جانب السمان ، وكانت طيلة الوقت ترتجف . عندما وصلت الى بيته أوصدت الباب جيدا ، انصرفت الى المطبخ . رتبت البيت على نسق جديد . واذا أقبل الليل استلقت على سريره مثل تمثال من السفنج الحار .

وأقبل اليها بعضلات جسمه المتينة ، مبتسما خفيف الظل ، وقال:

ـ اعتبر نفسي محظوظا جدا، كيف حصلت عليك من ضريح المومياء. اعتبر نفسي ملكا .. ماذا ؟ بلا كلام ؟ طيب ! هاتي بوسة.

وقبلها بسوقية .

ـ كيف ؟ عجبتك ؟ طيب خذي هذه.

وقبلها ثانية وهو يحضنها .

قال : ـ اعرفي انك لذيذة ، لذيذة ، لذيذة . انت اجمل امرأة في القاهرة . جسمك أجمل جسم في العالم .. أممم..

بعيد شروق الشمس استيقظت . نهضت ففتحت باب النافذة الخشبي ، وتنفست بعمق . كانت قلة من المارة تسير والشارع هادىء يستعد لاستقبال الحياة . تنفست ثانية ، واستدارت نحو الغرف الجميلة الانيقة، تريد برغبة موجدة أن تعرفها وتتلمسها .

دق الباب دقا خفيفا ، نظرت اليه ، وبسرعة قررت ألا تفتحه. واذ دق ثانية ، تعللت بأنها لا ترتدي ثيابا كافية . انصرفت الى النافذة من جديد وأرسلت عينيها نحو الشارع المستيقظ . كانت سيارة اجرة تنطلق مسرعة في اتجاه النيل ، ورجل يشير بيده عاليا . الى يمين الشرفة ترتبت البنى في صف طويل ، وبدأ بعض النوافذ يفتح. في الشرفة المقابلة رأت بابا يفتح ، وصبية في مثل عمرها تخرج منه . فتحت الصبية ذراعيها لشعاع الشمس الذهبي ، وشع وجهها مخضلا بالنور .

تحرك زوجها في السرير فانكفأت اليه . كان ما يزال نائما. تقدمت تجوس في الغرف الاخرى . وتوقفت اذ سمعت الدق الخفيف على الباب . رفعت رأسها مسترخية الفم ، وتحرك قلبها بمزيد من النبض. تكرر الدق ، وبدا عصبيا . تقدمت باضطراب فتحت الباب قليلا .

هنالك انتصب هو ، عبد الجبار . علت قامته النحيلة وامتد كتفاه العريضان مثل اله قديم . كان يتميز جبروتا ، ونظر اليها جامد العينين متحفزا . أرسل عينيه من نافذتي عينيها كما يفعل خالق أعد العدة لكل شيء ، واستقرتا عميقا في دخيلتها .

قال : ـ ((ومن أظلم ممن ذكر بايات ربه ثم أعرض عنها انا من المجرمين منتقمون)) . فأطرقت.

وأتم هو : ـ هذا الذي تزوجته رجل غريب . فاذا رأى منك غير الوجه والكفين مع علمك بأن هذا حرام كنت فاسقة . واذا رأى غير الوجه والكفين مع انكارك للحرام كنت كافرة .

بدأ صدرها يضيق ويجيش ، وأمسكت بالباب جيدا.

قال : ـ تتزوجين اثنين في وقت واحد ؟ ألا تحسبين ان آثامك الماضية تكفي لزجك في جهنم ؟ أين التوبة التي تبتها ؟

سألت متقطعة الاصوات : ـ ماذا سيفعل بي ؟

فسأل بقرف : ـ من هو ؟

قالت : ـ الله !

فنبر : ـ يفعل بك ؟ انه سوف يودي بك في أعماق جهنم . سوف يشوي لحمك وتطعمين منه ، ويغلي دمك وتشربين منه . سوف تخلع عظامك وسوف تعلق كلاليب الحديد المحمى في سائر أعضائك . اذا كانت عقوبة الزنى رجما بالحجارة حتى الموت ، فماذا تظنين عقوبة تعدد الازواج ؟

وكان صوتها قد تعالى بالبكاء ، وجعرت :

ـ خذني معك يا سيدي، خذني معك.

ـ لقد فات الاوان . ان التوبة بعد الموت لعبة لا تجوز على الله.

وأخذت تنحب وتعول ، وهم عبد الجبار يتابع كلامه ، وصاح صوت:

ـ ما هذا ؟ ما إلذي تفعله هنا يا سيدي الشيخ ؟

فالتفت اليه عبد الجبار برصانة .

قال : ـ هذه المرأة زوجة لرجلين أنت ثانيهما . زوجها مأذونان لرجلين مختلفين . انك الان شريك في الجريمة .

قال السمان بهدوء : ـ يا أخي اذهب للشرطة وبلغ عنها . أنا سعيد تماما بجريمتي. تزوجت عشرا ، ألفا : أقول لك اني ..

صاحت خيرية معولة : ـ طلقني . أريد أن أطلق .

وصاح زوجها : ـ مجنونة !

قال عبد الجبار : ـ طلقها خير لك . ستنال عقابا من الله أنت الاخر .

قال الزوج : ـ اتركها يا سيدي محبة بالله . اننا سعداء في هذه الجهنم .

تلوت خيرية امام زوجها دون ان تجرؤ على لمسه ، وتوسلت:

ـ طلقني .

وعاين احجامها فأمسك ذراعيها ، فتراجعت مذعورة كمن مسها لهب .

قال : ـ يا شيخة حرام عليك . نحن في اليوم الاول من شهر العسل .

قال عبد الجبار : ـ أي عسل وأنتم تعصون شرع الله.

قال الزوج : ـ يا بيك ، ان ما تقوله صحيح. لكنني راض ! أنا مجرم !

قال عبد الجبار : ـ انك تركب رأسك .

وقفت خيرية تنظر الى الرجلين . كانت عينا عبد الجبار ترتفعان بثبات واصرار وسيطرة ، وفمه ينطبق على تعبير قاس . ووقف الزوج وقفة منفعلة جائشة ، ووجهه يتحرك باعتراض شرس ، خائفا في نفس الحين من ان يقول شيئا .

وملأها رعب كبير حين استدار عبد الجبار على عقبيه وانصرف .

قالت : ـ يجب ان تطلقني.

فأغلق باب الدار بعصبية وتقدم من المغسلة .

قال : ـ طلاق لا يوجد .

ـ يجب ان تطلقني .

ـ قلت لك طلاق لا يوجد . أحببتك منذ وقت طويل ، ولا يوجد طلاق . وكان صوته مختنقا.

ـ ٧ ـ

قالت انها متعبة ، وتريد ان تنزل السجن لتعاقب ، وإن على المحكمة أن تحكم عليها بأقصى العقوبة . قالت انها يفي حقيقية . خاصة وانها تستطيب أي رجل .

قلت لها بحركة مسرحية : ـ اننا مع الاسف لا نستطيع ذلك.

فردت : ـ كيف ! ماذا تفعلون هنا ؟

وكانت حكايتها قد نشرت بي رغبة للتفلسف ، فقلت :

ـ انني أبحث عن مجرم حقيقي في هذا العالم . وأنت لست مجرمة .

طبعت على مطابع :

((دار الغد))

تلفون : ٢٢٢٩٢١

فهتفت : ــ كلا ، يا بيك ، أنا مجرمة . لا تضحك علي ، والنبي.
قلت : ــ أقول لك انك لست مجرمة ! القانون لا يعتبر تعدد الازواج هذا جريمة
ــ القانون يخالف الله !! أهو مجرم أيضا .
ــ حكاية غريبة ! جميع الناس يلبون القانون ! كل العالم!
ــ لا يا سيدي ، أنا مجرمة .
فنبرت : ــ يا شيخة كفاك فقرا . اذهبي انى شئت.
وتشاغلت بتأمل جسمها الجميل المرتجف . نظرت اليها عفوا فرأيتها تبكي.
غمغمت : ــ لا تضحك علي يا بيك ، أنا مسكينة .
قلت بجد : ــ انما أنت مجنونة ! أنا ممثل القانون ، اقول لك اذهبي
فاجهشت : ــ لا يا بيك ، أنا مجرمة . أريد السجن.
قلت : ــ أنت مجنونة ، وسأذبحك بالسكين . هيا معي الى بيتي، سأحضر زوجك اليك ، انه زوجك اخيرا . تفاهما معا .
واحسست انها لا تصغي الي.
قالت : ــ لا يا بيك.
عندما سحبتها من يدها .
ــ يجب أن يعاقبني القانون.
قلت : ــ انه لا يعاقب . انه دراجة بعجلة واحدة.
وسحبتها خارج الغرفة . ومن هناك حتى البيت كان يزداد وجومها وشحوبها . لم تنظر عيناها الى شيء معين، وكانتا شديدتي الشرود.
اجلستها وقلت :
عندما وصلت الى الباب ، صرخت هي صرخة نائية وسقطت. وفاجاني اغماؤها فرعت اليها . رششت بعض الماء على وجهها تتململ.
طمأنت نفسي بانتهاء الاغماء . أقفلت عليها بالمفتاح ، وانطلقت الى السيارة . كان علي الاتجاه الى الشارع الذي تقع فيه بعالية السمان . وهكذا اندفعت بالسيارة ، وكان القيظ شديدا .
لكن شيئا ولج في ذهني . وقفت بحذاء الرصيف فجأة ، ورحت أتأمل . برمت المقود وعدت. وطيلة الطريق كان خوفي يتزايد . تذكرت بطريقة خاطفة شيئا من حياة خيرية : لقد قبلت بسرعة ان تنسحب امام زوجة دسوقي ، وقبلت بسرعة ان تنسحب امام اختها من البيت الكبير، وقبلت بسرعه انتنسحب الى عبد الجبار، ثم من بيت عبدالجبار، ثم من بيت زوجها الثاني. قبلت كل انسحاب، مطاردة بشعورها المدمر بالاثم.
فتحت الباب ، وهناك رأيت بعيني ما رأيته بتصوري. كانت أرض وجدران البهو وغرفة الجلوس ملطخين بالدم. كأنما نشبت هناكمعركة. وكانت خيرية مرماة عند زاوية الغرفة وحول يدها دائرة منالدم.
تقدمت مفرقا جزعا . قلبت جسمها المنكور وامسكت يدها. وتطلعت عيناها بنظرة مخثورة مرهبة .
غمغمت : ــ الموت ــ صعب ــ يا بيك .
ربطت الشريان المقطوع . ولكن كان فات الاوان ، فقد شدت على يدي في مثل وداع وغمغمت ثانية :
ــ الموت ــ صعب ــ يا بيك.
وأضافت بعد قليل :
ــ لقد تعبت في حياتي.
وتشبثت بي جيدا وهمهمت :
ــ انني ــ خاطئة ــ ليغفر ــ لي الله ..
وتلاشت الحروف الاخيرة على شفتيها الزرقاوين ، ثم همدت .
نظرت الى جسمها الجميل المسجى على الارض ، والى وجهها الذي خلا الان من تعابير الحياة . كانت دمعتان قد سقطتا على خدي.
وبعد ذاك نهضت الى المخفر أتابع بحثي عن المجرم الحقيقي فيهذا العالم .

دمشق — هاني الراهب

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسله جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ــ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ــ ماريانا

تاليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمه شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ــ هيروشيما حبيبي

تاليف مرغريت دورا
ترجمه الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ــ لكل حقيقته

تاليف لويجي بيراندللو
ترجمة جورج سرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ــ تمت اللعبة

تاليف جان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ــ بيروت